حسن محسب

لحظة طيش

مكتبة غريب
٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

— ١ —

القاهرة .. قبل منتصف الليل .. الدنيا من حولنا خافتة جدا .. جرينا كثيراً وسط الشوارع .. ضحك معنا بعض العائدين إلى بيوتهم .. عاكسنا صاحب عربة فارهة .. حذرنا عسكرى الدورية ونصحنا بالعودة إلى البيت .. لهثت أنفاسنا ، فاسترحنا أخيراً عند شاطىء النيل .. جلسنا نضحك ، ونحدق فى أمواج النيل التى تعكس لمعان بعض النجوم برغم الظلام ، وتراهنا على ما يحدث فى إحدى العوامات وخلف جدران شقق العمارة القريبة .. وأراحت « منى » رأسها على كتفى فسألتها :

— هل تعرفين من هو .. أول من قال ، إن الحب .. خبز القلوب !! مدت ساقيها فوق ساقى ، وسألتنى هامسة :

— يهمك حقا أن تعرف يا خالد ؟؟ .. قلت وأصابعى تغوص فى شعرها الأسود الطويل :

— أراهن أنه كان ولدا مخبولا مثلى .. قبل أن أراك .. قبل أن أحبك ؟.. بعد أن رأيتك .. وبعد أن أحببتك ! ..

تلامست شفاهنا .. ضاقت المسافة بين أنفاسنا .. أغمضنا عيوننا لحظة .. لحظات .. بلل العرق أجزاء كثيرة من جسدينا .. سألتنى :

— هل تعرف .. إننى أحبك من قبل أن أولد ؟ ..

ضحكت .. وقلت لها لفظا ساخنا فى أذنها .. فقرصتنى بأصابعها حتى صحت مدعيا أنها آلمتنى جداً .. وبين سور الشاطىء المرتفع ، وأمواج النهر اللامعة المتدفقة ، كانت هناك مساحة كبيرة من الظلام والظلال تسمح لنا بممارسة الحب فوق بعض الحشائش والطوب والزلط .. مرت دقائق كثيرة ونحن نتلاقى ونتقلب على إيقاع أنفاسنا اللاهثة .. وقبلاتنا المتلاحقة و .. ازددنا التصاقا و .. ارتجفنا بفرح غامر .. ولفنا صمت طويل ..

أخيراً قلت ، وأنا أريح رأسى على فخذها :

— تجمعت أحلام العمر فى أمنية واحدة .. أن ألتقى بفتاة مثلك .. أحبها وتحبنى .. وحين تكون يدى فى يدها ، يفكر عقلانا معا .. فلا تهزمنا قسوة الحياة .. ولا نتوه فى الزحام .. ولا تمزقنا الغربة .. ولا يستنزفنا الإحساس باليتم !

اقترب وجهها من وجهى .. تداخلت أنفاسنا .. تلامست رموش عيوننا .. قالت :

— أنت تتحدث عن أحلام عمرى أنا يا خالد !

قلت ، وأصابعى تداعب خصلات من شعرها :

— حلمت كثيرا بفتاة مثلك .. لقد انتظرت طويلا .. كنت أتوقع ظهورك فى كل لحظة .. يوم دخلت المدرسة لأول مرة فى حياتى توقعت أن أراك بين زملائى الأطفال .. يوم دخلت الجامعة توقعت أن أراك .. يوم صرت موظفا توقعت ظهورك .. كنت أنتظرك تشقين قلب السماء كالبرق وتأتين

تزلزلين جوف الأرض كالبركان وتأتين.. تتعلقين بحزمة من خيوط الشمس والقمر وتأتين .. تلتفين بنسمات الهواء وتثقبين كل الحواجز وتأتين .. لكن انتظاري لك طال ثلاثين سنة كاملة يا بنت الـ .. ؟

قالت « منى » مازحة :

— ياه ! ..كل هذا .. الحلم الساحر .. من أجلي أنا ؟؟ ..

قلت وأنا أنهض ، وأنهضها معى :

— من أجلك أنت ! ..

ضحكت كطفلة وقالت :

— إذن فأنت .. أكيد .. أكيد .. ولد مجنون ؟ ..

وضعت يدى حول خصرها ، وقلت :

— مجنون بك يا بنت القرود .. إعطيني قبلة تثير غيرة من يهمهم الأمر؟.

وطرنا .. كالفراشات ، طرنا عبر الشوارع والبيوت والفنادق والعمارات والنيل كطفلين ولدا لتوهما من رحم الليل والأمل ، ومن حولنا غناء عذب ساحر ، يردد كلمات قالها جدى القديم فى لحظة عشق عاتية جدا :

— « فريدة حبيبتى فى حسنها .. ما مثلها أحد .. أجمل من كل النساء هى .. مشرقة .. انظر إليها كالنجمة الإلهية فى مطلع عام سعيد .. ساطعة باهرة وضاءة البشرة .. جميلة العينين حين تنظر .. عذبة الشفاه حين تتحدث .. كلمة زائدة لا تقولها .. طويلة العنق جميلة الثديين .. شعرها أسود طويل ، ذراعاها تفوقان الذهب .. أصابعها أزهار اللوتس .. مشدودة الخصر عند انسياب الردفين .. تزيد ساقاها من جمالها .. تخطو على الأرض فى كبرياء .. أسرت قلبى بعناقها .. وجعلت عينى مشدوهتين بجمالها » ..

تعانقنا فى حديقة الحرية ، وركبنا مراجيح الملاهى .. رشونا حارسها بعلبة سجائر وقروش قليلة فرق قلبه لنا ، وتركنا نمرح فوق المراجيح .. تعانقت أصابعنا .. حاذينا قمة برج الجزيرة .. رأينا القاهرة من فوق .. صاحت منى فى نشوة عارمة :

– حبيبى .. صوتك ، لمسة أصابعك تهز قلبى .. توجع جسدى .. يأسرنى حبك .. تجعلنى حبلى بأمطار غزيرة .. لكننى مثلك لا عقل لى .. لا أعرف كيف أسيطر على نفسى .. قلبى يدفعنى بعنف إليك .. آه يا حبيبى أرجوك .. لا تجعل الناس يقولون عنى : أضاعها الحب .. مسكينة .. مجنونة .. أتسمعنى أيها الولد الطائش ؟ ! ...

فقلت مبتهجا :

– دعينا أولا نقف على الأرض ؟؟ ..

وقفزنا من مراجيح الملاهى ، صارخين مهللين كالأطفال .. وسقطنا فوق حشائش الحديقة ، دون أن نكف عن الضحك ! ..

. . . .

. . . .

– ٢ –

دخلنا منزلا آيلا للسقوط فى أية لحظة .. طراز معمارى بدائى .. بنيت جدرانه من أحجار كبيرة الحجم .. نوافذه خليط من خشب مملوكى تركى .. وزجاجه مدهون بالأزرق والأصفر والأسود .. أبوابه تستمد قوتها من أذرع وترابيس حديدية سميكة .. درجات السلم من حجر متأكل .. قلت لمنى :

– مثل بيت أمى فى ضواحى الأقصر ..

ضحكت وجذبتنى إلى الداخل .. أجلستنى على مقعد عتيق .. يبوح بمجد أبوى زائل .. تركتنى لحظة واختفت فى سراديب المسكن .. أخذت أحدق فى اللوحة المعلقة أمامى على الجدار ، بقع ضوء تحاول أن تهزم الظلام القاتم حول فتاة رقيقة ، شعرها متناثر بطول اللوحة وعرضها .. وثيابها الشفافة تكشف عن كنوز خالدة ومثيرة و ..

– أهلا يا ابنى .. شرفتنا . .

استدرت مرتبكا .. وقفت مسرعا .. وضعت يدى فى يد أمها المعروقة.. ونظرت إلى وجهها الممصوص.. فى عينيها الغامرتين بحنان ملحوظ .. صورة طبق الأصل من أمى .. فى الأقصر .. و .. جلسنا صامتين إلى أن ضحكت « منى » ساخرة منا ومن نفسها ومن أكواب الشاى التى وضعتها أمامنا .. وغابت مرة أخرى وعادت مسرعة ومعها بيض مسلوق وخبز ، وملح مخلوط بالفلفل الأسود . . وجلست تطعمنى وتطعم نفسها و . . ازداد ارتباكى .. و ..

أخيراً قالت منى :

– أمى .. خالد .. زميلى فى العمل .. وصمتت ، كأنها اكتفت بتقديم كل منا للآخر .. وكان على أن أتكلم .. قلت :

سأتزوج أنا ومنى .. ما هو رأيك يا أمى ؟

اعترضت « منى » على كل ما قلته ، أوضحت لى أننى لم أفهمها بعد . : وقالت لأمها :

– إننا زملاء .. أصدقاء .. لكننا فى حاجة إلى وقت معقول لنتأكد من حبنا ! ! . .

وصمتت ! . .

نظرت إلى أمها .. ونظرت هى إلى .. وطال الصمت ..

وأخيرا قالت الأم :

– المسألة يا ابنى بيد منى وحدها . . لقد تركها المرحوم والدها وهى طفلة . . وظلت وحيدتى . . وأنا وحيدتها ، واختلف الأهل والأقارب على الميراث وتجاهلونا أنا وهى . . ومرت السنون بحلوها ومرها . . وها هى منى كالرجل .. أنهت دراستها بالجامعة .. وصارت موظفة .. وعليها أن تبنى مستقبلها بنفسها ! ..

كانت الأم تنهى مهمتها الشاقة ، فى هذه اللحظة ، كانت تهيىء نفسها على اجتياز أهوال الطريق وعلى النجاة بابنتها من براثن أخطار لا حصر لها.. كانت تدق مرساتها الآن فى شاطىء الأمان ..

كانت تعلن بوضوح :

– يا ابنى .. ابنتى منى هى ولية أمر نفسها .. فقد تعلمت ما لا أعلم .. وفهمت ما لا أفهم .. وأنا أصدق عقلها على الدوام !

كان لابد أن أوضح موقفى للأم .. فقلت :

– عندما آن لى أن أودع أمى وأرحل من الأقصر للقاهرة .. منذ سبع سنوات .. قالت لى نفس الكلمات ، أصرت أمام الأخوال والأعمام على أننى ولى أمر نفسى منذ ولدت ! ..

قالت الأم :

– هذا هو حال اليتامى وأبناء الأرامل ! ..

ضحكت منى بصوتها العذب .. الملىء بشقاوة الأطفال و .. قالت :

– سعيكم مشكور ، ..

ثم نهضت وقالت :

– آن لنا أن نذهب لعملنا يا خالد أفندى ! ..

ودعتنا الأم عند باب المسكن .. وهبطنا طابقين ،وسرنا فى الشارع .. وحيدين .. صامتين .. ثم تبادلنا النظرات..وضحكنا ..وتشابكت أصابعنا.. وطاردنا أحد الشبان بكلمة خارجة .. وخبطنا صبى بعجلة يركبها و .. قذفها شاب آخر بالكرة الشراب فى مؤخرتها و .. قلت :

– هل ثقة أمك وأمى .. فى محلها ؟ ..

قالت :

– هذا يتوقف على ثقتنا أنا وأنت .. بنفسينا أولا ..

قلت :

– حلمت بك .. لأثق بنفسى أكثر ..

قالت :

– وأنا أيضا .. ولكن ..

صمتت لحظة ، وأضافت :

– بشرط ألا نظل أطفالا للأبد ؟

سألتها :

– هل قال لك أحد من قبل أن دمك ثقيل جدا ؟ . .

ضحكت وقالت :

– كل زملائى بالجامعة . . وكل جيرانى . . وكل زملائى بالعمل ، قالوا ذلك قبلك ! . .

ضحكت من قلبى وقلت :

– يعنى . . أنا الغبى الأوحد الذى رضى أن يحبك ؟ . .

ضحكت هى الأخرى ، وقالت :

– وبالتأكيد . . أنا أيضا الغبية الوحيدة التى رضيت أن تحبك !

وبلل العرق أصابع يدينا المتشابكتين ، وعبرنا الشارع جريا إلى محطة الأتوبيس . . سقطت الأمطار فجأة . . اكتشفت أن السماء ملبدة بغيوم قاتمة . . تخفى الشمس عنا تماما . . جذبت منى إلى جوارى . . سألتها هامسا :

– هل أنت جادة فى طلب المهلة ؟ ؟ . .

قالت :

– إذا كنت تزعم أنك فهمتنى . . فأنا لم أفهمك بعد ؟ . .

نظرت إليها . . ونظرت إلى . . وكدنا نتبادل قبلة على قارعة الطريق لكن الأمطار زادت . . وبللتنا تماما ، فمسحت وجهها براحتى وشعرت بدفء شفتيها على أصابعى . فقلت :

– ظننت أن الحب جاء لأننا .. لأننا فهمنا بعضنا ؟ ..

قالت :

– تعلمت من تجاربى أن الحب لا يعنى – تلقائيا – التفاهم الكامل .. إنه يجب أن يكون البداية الصحيحة للفهم والتفاهم ! ..

انقبض قلبى .. لأول مرة منذ عرفت منى . سألتها بقلق واضح :

– تقولين .. تجاربك ؟؟ ..

هزت رأسها .. المبلل الآن بالأمطار .. وقالت :

– سأحكيها لك بالتفصيل ! ..

سألتها بفزع :

– هل .. هل عرفت رجالا .. قبل أن ..

قاطعتنى باندهاش شديد :

– هل تظن أننى عشت فى قمقم ؟ .. لقد كنت طفلة .. وصبية .. وتلميذة فى ابتدائى وإعدادى .. وثانوى .. وجامعة .. وطوال هذه المرحلة كنت أنمو .. وأحلم .. وأحب .. وأتحرك وأمشى وسط شبان ورجال .. مثل كل فتاة فى الدنيا ، لكننى أعرف أيضا أن العقل هو جوهرة الحياة ..

و .. طال صمتى ، وازداد ضيقى : . إنها صريحة جدا .. ومخيفة أيضا .. قلت لها أخيرا :

– هل تسمين شقاوة الطفولة .. تجارب ؟ ؟

صدمتنى بقولها :

– لم أقل شقاوة طفولة . . إننى واضحة تماما معك ! . .

سألتها بتردد :

– إذن فلك تجارب . . تجارب مع . . ؟

قالت :

– عمرى بالضبط هو خمس وعشرون سنة . . وسبع تجارب .

رفعت وجهى للسماء . . فسقطت فوقه الأمطار الباردة ، لكن جسدى كله ظل مضطربا بسخونة مؤلمة . . وجدتنى أتساءل فى حزن شديد :

– سبع تجارب . . مرة واحدة ؟ ؟

قالت :

– سأرويها لك بالتفصيل ! . .

فكرت فى الاختفاء منها وسط زحام الركاب المنتظرين حول موقف الأتوبيس . . هممت أن أقترح إعادتها إلى البيت . . أن . . لكنها فاجأتنى بسؤال :

– وأنت يا خالد كم تجربة فى حياتك ؟ ؟ . .

لسعنى سؤالها . . نظرت إليها . . كانت تزداد تألقا وإثارة وهى مبللة بالمطر . . حاصرتنى عيناها . . قلت :

– إذا كان عمرك خمسا وعشرين سنة . . فأنا الآن فى الثلاثين من عمرى؟..

ضحكت وقالت :

– ستحكى لى . . هه ؟ . .

قلت :

– إننا نعذب أنفسنا . . نقتل حبنا ؟ . .

قالت :

– إذا احتكمنا للعقل . . سنريح أنفسنا . . ونحمى حبنا !

مرت الأتوبيسات مزدحمة ، وازداد هطول الأمطار . . وبللتنا المياه بطين الشارع . . وكدت أختنق ، فقبضت على ذراعها بأصابع متوترة ، ودفعتها داخل تاكسى توقف لنا بما يشبه المعجزة . . وأشعلت سيجارتى . . وحاولت التفكير فى كل ما قالته بنت القرود . . لكنها سألتنى :

– هل تحب الشتاء والأمطار مثلى ؟ ! . .

نظرت إليها . . وابتسمت فى حيرة شديدة . . كانت عيناها السوداوان تلمعان ببريق أخاذ . . وكان جسدها نحيلا داخل بلوزتها وبنطلونها المبللين . . سألتها :

– تشعرين بالبرد ؟؟ ::

هزت رأسها .. وابتسمت فى مودة وأخذت يدى بين راحتيها .

وظلت تنفخ فى أصابعى لتدفئها .: وسألتنى :

– أليس عندك ثياب ثقيلة ؟ ::

قلت :

– أبدا :: بنطلون وقميص وبلوفر ::

ضحكت وقالت :

– مثلى تماما ! :.

ضحكت وقلت :

— فى الفقر ؟ ..

قالت باندهاش :

— ولماذا تقولها بحزن هكذا ؟ .. عموما الشتاء فى بلدنا قصير جدا !..

و .. تذكرت لونا ليلة أمس .. وتساءلت ، بينى وبين نفسى :

— هل يكون حبنا .. هو الآخر .. قصير العمر ؟؟ ..

. . . .

. . . .

— ٣ —

كان المساء مهددا بأمطار أخرى .. لكنه كان مشبعا بالدفء .. فأخذنا نتجول على سطوح العمارة القريبة من النيل .. وأخذت أروى لها بعض أحلامى بها .. وخطواتنا تتقلنا بين السطوح وغرفتى .. أخيرا جلست تصنع كوبين من الشاى ، على (وابور السبرتو) وتنصت إلى ..

قلت لها :

— كنت .. موجودا .. بين خمسة ملايين رجل وامرأة فى القاهرة الكبرى ، ومع ذلك لم أجد إنسانا واحدا أعرفه .. أو يمكن أن أتحدث معه .. فتضاعف شعورى بالغربة .. بل إن هذا الشعور بالذات أصابنى فى الصميم .. وجعلنى — فى الليل والنهار — أجتر حلم العمر : أن ألتقى بصديقة توقظ العقل وتدفىء القلب .. واستعذبت هذا الحلم .. رغم يقينى بأن تحقيقه هو أحد المستحيلات فى هذه الدنيا .. ولكننى لم أتخل

أبدا عن هذا الحلم .. واعتدت ممارسته وعيناى مفتوحتان .. ترقبان هذه الخطوط الدقيقة التى أمامك فى دهان الحائط الباهت .. انظرى .. نعم هذه — وأمسكت بأصبع منى وحركتها فوق تلك الخطوط — إننى بهذه الطريقة ، كنت أرسم وجهك الجميل ، وأحيطه بشعرك الناعم الذى يبعثره الهواء من بين أصابعى .. وجعلت عينيك سوداوين .. تلمعان بالذكاء.. ثم دخنت سيجارتى ، وأخرجت رأسى من النافذة ، وحاولت أن أجد — للمرة المليون — لذة فى مشاهدة نوافذ وشرفات وأسطح ومناور عمارات حى المنيل ، لكن أنظرى يا منى .. ها هى ذى مرة أخرى ، جارتى الحسناء تغيظنى .. إنها تعمل مضيفة فى شركة طيران أجنبية ، وتقيم مع رجلها فى الشقة التى أتجول فوقها بحريتى .. ونظرت منى إلى حيث أشرت أسفلنا .. واحمر وجهها .. وتراجعت !

فعصت سيجارتى فوق سور السطوح ، وأخذت كوب الشاى من منى ، ووقفت بجوارها .. نتأمل السماء .. أخيرا قلت لها :

— فى كل ليلة ، أقف هنا ، أمارس ملكيتى الموهومة لهذه المساحات الشاسعة من السماء وهذا العدد من النجوم والسحب .. وأسطح العمارات المجاورة أيضا .. لكن ضالة غرفتى .. القابعة كما ترين ، فى الركن كمغارة الذئب أو قاطع الطريق ، كانت تتكفل باعادتى دائما إلى حجمى الحقيقى :

— الاسم : خالد عبد الستار — مواليد الأقصر — بطاقة شخصية رقم ١٨٢٤٨ — المهنة : كما تعرفين ، موظف فى (مصلحة التطور) .. السن بالضبط ٢٧ سنة ، لكننى أشعر بأنها ثلاثون .. أربعون .. ألف سنة ! .. الحالة الاجتماعية : أعزب .. العنوان : كما تعرفين —

٤٠٤ شارع قصر المشتهى .. شقة رقم ١١١٧ ، كما ترين .. وهى شقة مكونة من غرفة واحدة ، ودورة مياهها منفصلة عنها .. بجوار رأس السلم مباشرة .. ويمكن أن تزيدى معلوماتك ، فتعرفى أن إيجارها الشهرى خمسة جنيهات ومحتوياتها : سرير ، فوقه مرتبة مبقعة .. وهناك بطانية ومخدة .. وهذا العدد الضئيل من الكتب المتبقية من أيام الدراسة بالجامعة .. وكمية من لبابات الخبز وطبق به فول وطعمية وأعقاب سجائر و .. آخر جريدة قرأتها قبل أن أحبك .. !

فردت منى الجريدة ، طالعت عنوانها العريض الفاقع اللون :

« تشريعات جديدة لتحقيق الاستقرار العائلى ! »

وضحكت وقالت :

– لماذا إذن حضرتك متشائم ؟؟

لسعتنى برودة الليل .. ضممت أصابع يدى وفردتها .. حككتها فى بعضها عدة مرات ، لكن البرد كان قارسا جداً .. اقترحت على منى أن نلعب بعض التمارين الرياضية .. هيا .. ثنى .. مد .. يمين .. شمال .. لكننا ضحكنا على أنفسنا كالعادة .. و .. هرولت منى إلى السرير وغطت نفسها بالبطانية متصنعة النوم العميق ، فأسرعت إلى جوارها .. ونظرت إلى عينيها السوداوين اللامعتين بالذكاء .. ولاحظت أن عينيها لا تكفان عن البوح بالحب والشوق .. أخذتها بين ذراعى وقبلتها و .. لكنها اقترحت أن نخرج فورا ، ونهضت واقفة ترتب ثيابها .. وتعلن رأيها فى مسكنى :

– غرفة تصلح للعشق أيضا لكنها مخيفة .. كأنها ملجأ لهارب من العدالة .. ثم سألتنى : هل كان جدك تاجر ممنوعات يا ولد ؟

وفرقعت ضحكاتنا .. وهبطنا سلم العمارة ونحن نتبادل القبلات ، و.. فى الشارع جرينا متظاهرين بأننا نريد عبور الطريق قبل تحول إشارات المرور .. وملأنا الكورنيش بضحكاتنا و .. أخذنا نبحث عن مكان نشرب فيه الشاى .. وجدنا أنفسنا فى وسط البلد .. فى شارع سليمان .. فى شارع قصر النيل .. شارع فؤاد .. فى مشرب الأمريكين .. وطلبنا (سحلب) فاعتذر الجرسون بدهشة وتأدب .. فعدنا للشارع .. واقترحت عليها أن نعود إلى غرفتى .. فقالت ضاحكة :

ـ تقصد كهفك الحجرى فوق السطوح و ..

وضحكنا بمرح ..

وأعلن بعض السائرين فى الشارع ، أننا جيل طائش .. و .. ركبنا مع أحلامنا فى الأتوبيس ، ومن أتوبيس لآخر وصلنا فى منتصف الليل ، إلى صحراء الهرم ..

وقفنا كثيرا بجوار (أبو الهول) وجلسنا على درجات المسرح القديم هناك .. وصعدنا إلى المساحة العريضة تحت أقدام (أبو الهول) وتعانقنا .. وعدنا نتسابق جريا بين الأهرامات .. ومن رحم التاريخ القديم جاءنا صوت جدتنا .. العاشقة .. القديمة جداً :

ـ «أنزل إلى الماء .. لأستحم أمامك .. وأتركك تملأ عينيك بجمالى .. وأنا فى ثوبى الكتانى الأبيض .. وقد ابتل بالماء .. والتصق بجسدى .. وأبرز مفاتنى .. انظر إلى» ..

و .. تعانقت أيدينا .. وجذبت منى إلى ظل الهرم الأكبر .. واختفينا عن القمر والنجوم والسحب القاتمة .. وتبادلنا الهمس ..

قالت منى :

– يا لهناء ساعتى التى أرتاح فيها معك ؟

قلت :

– آه لو دامت هذه الساعة .. واستمرت الدهر كله ؟

همست :

– أنت .. حياة قلبى ! ..

ثم أضافت :

– ولكنى خائفة .. فقد تهجرنى ؟ ..

– كيف .. ولماذا أهجرك ؟ .. إنك حبيبتى .. وصديقتى .. وسنزرع أحلامنا معا ، بعيدا عن هبوب العواصف ! ..

تأوهت منى .. وبللتنا الأمطار .. وسألتها :

– هل تعرفين ماذا كانت تقول جدتك .. من آلاف السنين .. لحبيبها ؟ ..

– ماذا كانت تقول ؟ ..

ضحكت .. وقلت :

– كانت تسأله : ألا تريد أن تمر بيدك فى حنان على ساقى ؟ ..

إن صدرى لك أيها الجائع للحب .. هاك جسدى كله لك ! ..

قرصتنى منى ، وقالت :

– أنت قليل الأدب ! ..

ــ وأنت جاهلة .. اقرئى كتب الحضارة وأنت تعرفين كيف كان أجدادنا يحبون ؟ ..

سألتنى بمرح :

ــ أأنت جائع للحب ؟؟ ..

وتعانقنا فزجرنا حارس الهرم .. عند الفجر ! ..

سألتها : متى تبوحين بتجاربك ..

نظرت إلى .. وقالت بألم وتوتر : « يبدو أنك تتصور ماضيا فاضحا جداً لحياتى ؟؟ » .

ازداد ارتباكى .. قلت دون أن أنظر إليها :

ــ أبدا .. إننى فقط لا أفهم إصرارك على تأجيل زواجنا ؟ ..

طلبت سيجارة ، فأشعلتها لها ، وسرنا ندخن ، فوق منحدر طريق الهرم .. ونرقب انبثاق الشمس من خلف القلعة والعمارات والأفق .. أخيرا قالت :

ــ سأجلس أمامك على كرسى الاعتراف ذات يوم .. فلا تقلق !

. . . .

. . . .

ــ ٤ ــ

بالرغم من أن معلوماتى فى الجغرافيا ، لا تتعدى معرفة الجهات الأربع .. بشرط أن أرى الشمس بعينى ، فقد وجدت نفسى ضمن (بعثة) مسافرة إلى الصحراء الغربية .. لعمل مسح دقيق لبعض المناطق هناك .. ولم أهتم

بالأمر ، إلا من زاوية واحدة فقط ، هى أننى سأحرم من رؤية « منى » أسبوعا .. فهرعت إليها فى الغرفة المجاورة .. كانت منهمكة فى إعداد خرائط كثيرة .. كانت تضع نظارة على عينيها ، بدا منظرها مضحكا .. وقفت بجوارها صامتا .. سألتنى دون أن ترفع عينيها عن الخرائط :

– متى تسافر ؟ ..

قلت :

– غداً ... فى الفجر ؟ ..

قالت :

– ليتنى معكم ؟

وضبطت المسطرة الطويلة ورسمت خطا طويلا بالقلم الرصاص السميك.. وتناولت (المثلث) وراحت تقيس درجة الزاوية الجديدة .. قلت لها :

– الزاوية الحادة لا تناسب المشروع ؟ ..

أعادت النظر فى الخريطة .. ثم ضحكت ، وخلعت نظارتها عن عينيها .. وقالت :

– لا تتعجل فى أحكامك ! ..

وهمست فى أذنى بكلمة بائخة .. ومع ذلك ضحكت .. نظر الينا زملاء وزميلات « منى » فى الغرفة .. أسرعت أقول :

– ما رأيك .. تأتين معى إلى الصحراء ؟؟

قالت :

– هذا يتوقف على نجاحكم هناك .. فلدينا مشاريع كثيرة تنتظر همتكم !..

ثم فردت الخرائط ، وراحت تحدثنى عن مشاريعها لبناء مصنع جديد ، ومزرعة جديدة ، ومنازل جديدة ، ومدارس جديدة : . و . . أوهمت نفسى أننى أتابع حديثها وشروحها وأخذت منها القلم الرصاص . . وكتبت لها على هامش الخريطة :

ـ أحبك . . وأريد أن أقبلك الآن فورا : : فما هو رأيك ؟ ؟

نظرت إلى طويلا . . ثم تنهدت ، ووضعت نظارتها على عينيها وقالت :

ـ أنت إنسان همجى جدا ! : :

وابتسمت ، لكن التوتر كان واضحا فى شفتيها ، وفى أناملها وهى تأخذ منى القلم . . احتويت أصابعها فى راحتى وضغطتها بعنف فزجرتنى عيناها . . وقالت :

ـ على فكرة : : معى شىء يسليك فى الصحراء ! ! . .

وفتحت حقيبتها السوداء ، وأعطتنى كيسا من البلاستيك الشفاف ، وبداخله عدة خطابات . . وأضافت :

ـ جزء من التجارب المثيرة ! . :

ومن جديد داهمها الألم والتوتر . . ولم ترفع وجهها عن الخرائط . . وطال الصمت . . فخرجت . : عائدا إلى غرفتى . . داهمنى صوت عاطف زميلى :

ـ لا تنس موعد الطائرة . . قبل أذان الفجر لابد أن تكون فى المطار لأن . . : : : :

هززت رأسى مدعيا فهم تعليمات « عاطف » . . وجلست إلى مكتبى . . وضعت الخطابات فوق الخرائط وأخذت أحدق فيها . . وسألت نفسى :

– هل من حق أى إنسان آخر أن يقرأ رسائلى إلى إنسانة أحببتها ذات يوم ؟ ! . .

حاولت أن أعمل بالحكمة الشهيرة : إن لكل إنسان حياته الخاصة . . وأسراره الخاصة !

عدت إلى منى . . أعطيتها الخطابات . . لكنها رفضت أن تأخذها وقالت :

– هل تخاف من . . ماضى ؟ . .

وضحكت ثم قالت :

– ليس لدى ما أخجل منه . . أمامك أنت بالذات ! . .

قلت :

– لهذا . . لهذه الثقة منك . . فلن أقرأ الخطابات . . إنها . .

قالت :

– دع هذه الكلمات المنافقة . . وقل لى : ألا تريد أن تعرفنى على حقيقتى ؟؟

قلت : دعينى أكتشفك . . وأتعرف عليك . . بطريقة أفضل . .

سألتنى :

– وما هى هذه الطريقة الأفضل ؟؟ . .

قلت :

– إننا منذ تعارفنا . . ونحن لا نخفى شيئا . . ولقاءاتنا كفيلة بأن . . . . . .

قالت بضيق شديد :

– إذا كنت لا تريد البوح بشيء يخصك . . فأنا مصرة على البوح لك ! . .

سألتها بضيق أشد :

– إنها لعبة سخيفة . . فهل مللت حبى ؟؟

قالت باندهاش :

– أنت تغالط ! . .

ثم أضافت :

– كلنا نعرف أن اكتشاف الماضى ، بعد الزواج . . يدمر حياتنا . . ومع ذلك نغالط . . اسمع يا خالد . . إذا كنت – حقا – تريد أن نتزوج فيجب أن تعرف من أكون . . وماذا كنت ؟؟ . . على الأقل ليكون أمامك فرصة للتراجع ! ! . .

ملأ الفزع قلبى . . فتحت فمى لأسألها . . لكنها عادت إلى عملها . . وظلت صامتة .. أشعلت سيجارتى ، وهممت بالخروج ، فأعطتنى الرسائل ، وهى تقول :

– لا تتأخر فى الصحراء !

وتعلقت عيناى بعينيها . . وتبادلنا ابتسامة مهزوزة ؟ . .

. . . .

. . . .

عندما وجدت نفسى بداخل الطائرة ، حاولت أن أظهر ، من باب المجاملة لزملائى ، بعض الاهتمام لأثبت لهم أنهم كانوا على حق فى إصرارهم على اصطحابى معهم فى هذه المهمة الرسمية ، لكن ضجيج الطائرة أراحنى من عناء التحدث إليهم حول أى شىء . . فانشغلت بمتابعة القاهرة وهى تبتعد . . تبتعد . . وبيوتها تتضاءل وتصبح كعلب الكبريت . . ثم كمربعات الشطرنج . . ثم تتلاشى . . تتلاشى . . وصار الهرم الأكبر حجرا صغيرا مقذوفا تحتنا . . وتذكرت أحداث لهونا ومرحنا بالأمس . . وأخرجت رسائل منى من جيبى . . لكننى عجزت عن فتحها . . شعرت بالانزعاج . . هربت . . تراجعت فى مقعدى . . قلت لزميلى عاطف :

— آه لو مرت الطائرة الآن فوق قريتى أكيد ستزغرد أمى . . ولن يهدأ لها بال إلا إذا علم الجميع أن ابنها خالد عبد الستار يركب الطائرة الآن كالوزير ! . .

وضحكت . . فقهقهت . . لكن صوتى كان باهتا . . مكتوما . . ولم يعلق (عاطف) بأية كلمة أو إشارة فقد انشغل عنى بالمضيفة التى أعجبنى وجهها وضايقتنى ابتسامتها الملصقة بقرب أسنانها اللامعة . . داعبتها بكلمات سخيفة مدعيا طلب فنجان قهوة سادة . . وعندما قدمت لى فنجان القهوة ، برقة وعذوبة ، سألتها :

— ما رأيك يا حلوة . . هل تبوحين بماضيك لخطيبك ؟ ؟ . .

غضبت المضيفة . . أقسمت لها أننى فى ورطة وأريد رأيها : :
قالت لى :

ــ أفكر . : وأرد عليك ! . :

قلت بلهفة :

ــ أرجوك . . قبل نهاية الرحلة ! . .

هزت رأسها برشاقة واستدارت عائدة ، فلكزنى زميلى « عاطف » فى صدرى وقال :

ــ ألا تكف عن تخاريفك هذه أبدا ؟؟ . .

حاولت أن أشركه فى التفكير معى . . لكننى ترددت . . إن ماضى « منى » لا يصح أن أثرثر فيه مع أحد . . هربت إلى الفضاء الفسيح ، عبر نافذة الطائرة ، كانت السحب حبلى بأمطار كثيفة . . كانت الأرض مختفية تحت طبقات من البخار القاتم . . حاولت أن أحدد موقعنا ــ حاليا ــ لكننى فشلت . . فانشغلت فى محاولة حصر وسائل المواصلات التى امتطاها أجدادى وآبائى . . وذلك لكى أحدد المسائل وأطمئن على أن التطور فى عائلتى الموقرة يسير بخط متصاعد لأعلى . . وليس لأسفل . . كما أظن عندما أكون منحرف المزاج .. لكننى وجدت أن المسألة ظلت محصورة فى سلالة الدواب عدة أجيال متعاقبة . . باستثناء جدى الأول الذى سار على قدميه وسط الكهوف والجبال والغابات ، مقتحما ظلام البدائية المجهولة . . ثم توالت الأحداث والوقائع على أجدادى . . من جيل لجيل . . ولكنها حكاية طويلة سأرويها لمنى عندما أعود . . المهم أن الأمر انتهى الآن ، بامتطائى أحد مقاعد هذه الطائرة . . تمددت باسترخاء ، وملت على أذن « عاطف » وسألته :

– ماذا سنفعل بالضبط فى الصحراء الغربية ؟ . .

فقال بجدية – لا يحب على ما يبدو أن تفارق ملامحه :

– ألا تفهم ماذا يعنى . . التطور . . يا بنى آدم ؟؟ . .

لابد أن نظراتى قد اتسعت ، وأننى ظهرت على حقيقتى : غبيا . . جاهلا . . همجيا . . لا أفهم . . إذ أن عاطف أضاف :

– عشرات الشركات الأجنبية تتسابق الآن لاستثمار أموالها فى بلادنا . . وهناك عروض مغرية . . تريد الصحراء الغربية بالذات . . والأجنبى رجل ذكى ويعرف كيف يضاعف أرباحه . . ولابد أن نكون نحن أذكى منه . . وأن نعد الخرائط الجولوجية اللازمة للاماكن التى . .

حاولت بكل إخلاص أن أفهم أسباب انفعال زميلى عاطف . . لكننى عجزت ، وأعلنت له فشلى فى حل رموز الكلمات المتقاطعة . . خصوصا تلك الكلمة – فى الصف الأفقى والمكونة من تسعة حروف ومعناها : قلزم – نصف لاعب . . وربع أغنية (معكوسة) . . وبجديته المعهودة ، أخذ عاطف الجريدة منى والقلم الرصاص . . وبدأ يحل لى هذا اللغز المحير . . قائلا رأيه المؤلم فى (ذكائى) !

عندما ودعتنى منى على باب المطار . . سألتها باندهاش :

– لماذا تتعبين نفسك يا بنت . . الدنيا برد عليك ! . .

قالت :

– لدى اقتراح ! . .

قلت بلهفة :

— موافق . . ما هو ؟ . .

قالت وعيناها تلمعان برغبات الشوق . . وشقاوة الطفولة :

— عندما تشتاق إلى . . صفر بشفتيك هكذا . . (ثم كورت شفتيها الدسمتين . . وأطلقت صفارة عذبة ساحرة . . كصوت البلبل) . .

ضممتها إلى صدرى ، من وراء ظهور المسافرين . . وتبادلنا قبلات سريعة . . وسط غبش الفجر ، وتعلمت كيف أصفر النغمة الساحرة الأليفة ، ثم سألتها :

— ما هو معنى هذه الصفارة الساحرة ؟؟ . .

قالت :

— معناها . . يا جاهل . . إننى أريدك الآن فورا . . فورا . . وضحكنا . .

ارتفع صفيرى بلهفة وشوق وعنف كأننى أريد أن أثقب به نافذة الطائرة و . .

لكزنى عاطف ، مؤنبا :

— ما هذا يا أخينا ؟ . . لماذا تصفر هكذا . . معنا فى الطائرة أجانب . . ونائب وزير ؟ . .

. . . .

. . . .

— ٦ —

لمحت المضيفة ، فى ممر الطائرة ، تسير برشاقة بين المقاعد . . ناديتها باشارة من يدى وعينى . .

أقبلت نحوى مبتسمة . . سألتها :

– هه .. فكرت .. هل تبوحين بماضيك لخطيبك ؟!..

هزت رأسها ، قالت :

– سؤالك غريب جداً !!..

ابتسمت ، وعدت أقسم لها أننى أريد رأيها .. فقالت :

– أنا شخصيا لا أبوح بأى شيء لخطيبى !!

سألتها :

– لماذا ؟؟ تخافين منه ؟؟ ..

– قالت ببساطة :

– لأننى أريد الزواج فعلا !!

وتركتنى ، وعادت تتحرك بمهارة وسط المقاعد ..

نظرت إلى رسائل « منى » .. ورأيت وجهها الخمرى ، وعينيها السوداوين .. وشعرها الطويل وخصرها النحيل .. وجرينا حول الهرم الأكبر ، وعند أقدام أبو الهول ، وفى الشوارع .

وسألتها بفزع :

– هل تهربين منى ؟..

نظرت إلى .. نظرة طويلة .. طويلة .. وأطلقت دفعات من الصفير العذب الساحر الأليف .. و ..

اهتزت الطائرة ، عندما صدمت عجلاتها بالمطار بعنف و .. قال زميلى عاطف بعصبية :

– كف عن السرحان .. وراءنا عمل طويل !

.. أخذت أحدق فى الصحراء الواسعة .. الواسعة ..

لم أستطع رؤية نهايتها .. صدمت نظراتى بلونها القاتم .. وطيورها الجارحة ، فازداد إحساسى بالغربة ، شعرت بأنى وحيد .. وحيد .. يتيم .. يتيم .. تلفت حولى .. ودون أن أدرى وجدتنى أصفر .. بالشفرة السرية بيننا :

– « حبيبتى .. أريدك الآن فوراً .. فوراً ! »

لكننى وسط الزحام الرسمى ، أخذت أسير فوق الرمال .. مدعيا الاهتمام بأحاديثهم وإشارات أيديهم إلى أنحاء متفرقة فى الصحراء و ..

. . . .

. . . .

— ٧ —

بقرار مفاجىء وغير مفهوم ، تأجل لقائى بمنى .. حرمت من رؤيتها .. لأجل غير مسمى .. كما حرمت من الحصول على (خلو رجل) مناسب فى غرفتى .. ذات المميزات فوق سطوح عمارة قصر المشتهى بالمنيل .. وإذا وضعت فى الحساب حجم السياح المتزايد وعدد الوفود الرسمية وغير الرسمية .. وأزمة المساكن والفنادق فى القاهرة وأضفت إلى ذلك جارتى الحسناء المضيفة بالشركة الأجنبية .. لعرفت حجم خسارتى الفادحة .. إن (خلو الرجل) كان كفيلا بتقريب المهلة التى تصر عليها البنت « منى » .. لكن .. كيف أراها .. هل كتب علينا الفراق هكذا .. وبمجرد قرار مفاجىء

باغتنا به السيد رئيس الوفد الرسمى وهو على سلم الطائرة .. عندما استدار ببساطة شديدة .. وقال بحسم : — خالد .. وعاطف .. ستبقيان هنـــا لعمل اللازم .. و .. ..

ودارت محركات الطائرة وتحركت عجلاتها بالفعل .. واستدارت مبتعدة ببطء .. ثم أسرعت .. وفى انتفاضة مفاجئة ارتفعت إلى السماء ، ودارت فوقنا نصف دورة واتجهت إلى بعيد .. وتركتنى مرتبكا .. أحملق فى وجه زميلى عاطف الذى تخلى لأول مرة عن جديته السمجة .. وسألنى بذعر لايخفى على إنسان محدود الذكاء مثلى :

— هل سنبقى هنا كثيراً .. يا ولد ؟ ..

و .. ضحكت .. ضحكت من أعماقى وبعنف شديد .. لدرجة إننى وقعت على الرمال ودفنت وجهى بين راحتى وتركت دموعى تتناثر على وجهى وفوق الرمال .. ثم حاولت التحكم فى شفتى لأطلق صفيرا طويلا ساحرا أليفاً .. لكن بعض الرمال تسللت إلى حلقى وآلمتنى وجعلتنى أبصق فى قرف شديد .. ثم اكتفيت بالفرجة على زميلى عاطف الذى كان يدور حول نفسه ، بارتباك شديد كمن غرق فى شبر من الماء .. وقلت :

— والآن ماذا سنفعل ياولد ؟

لم يهتم بالرد على .. تركنى وأخذ يرتب أمر معيشتنا فى الصحراء لكنه كان عصبيا فى أوامره لذلك الرجل البدوى الأشيب الذقن والشارب الكبير الرأس ، المعمم بشال قديم لكن بعناية شديدة وهو — كما فهمت الآن — حارس الاستراحة الحكومية التى صارت ، منذ هذه اللحظة العصيبة بيتنا العامر بوحدتنا ! ..

أخرجت خطابات « منى » .. من جيب سترتى المعلقة بجوار السرير ،

وحاولت أن أقرأها .. لكنني ترددت .. ارتعشت أحسست بأنني إذا قرأتها أكون كمن يهتك عرضها .

صحت بعصبية :

— ولد يا عاطف . . هل حكموا علينا بالنفى .. هنا ؟ . . أجبنى يا ابن الـ ..

قفز عاطف من فراشه ، وأمسك عنقى بأصابعه المهتزة وقال :

— اسمع .. أنا لا أسمح لك أبدا أن تقل أدبك معى .. أتفهم ؟؟ . .

وتلاقت نظراتنا المضطربة .. وارتخت أصابعنا فى حياء شديد . . وفى صمت .. تباعدنا .. ذهب كل منا إلى فراشه .. وحاولنا — أنا على الأقل — حاولت أن أنام ، ..

. . . .

. . . .

— ٨ —

وفى المساء ، جلست فى شرفة الاستراحة ، أفزعتنى الرياح وعواء الذئاب فى مغارات بعيدة .. مجهولة لى .. تصبب العرق من وجهى وعنقى وجسدى كله . سرت البرودة فى مفاصلى وأننى .. كدت أنادى أمى .. لكننى صحت :

— أشتاق إليك يا منى القلب والعقل ! ..

وفاجأني صوت عاطف :

— اهدأ يا ولد .. وكف عن تخاريفك هذه !

ثم وضع أمامى كوب الشاى ، بمودة شديدة وهو يقول مداعبا :

— هه .: عاطف بك عين أعيان الجيل الجديد من عائلة العواطف الشهيرة بالقاهرة ووجه بحرى .. يعمل دادة لجنابك على آخر الزمن !

وجلس وهو يضحك ، فضحكت معه .: وتشبثت بالضحكات .. ثم .: تسليت باستمرار الضحك .: وسرعان ما استعدت هدوئى و .. مددت ساقى ، علقت قدمى فى حافة الشرفة واسترخيت فى مقعدى المصنوع من الجريد وشربت جرعة كبيرة من الشاى وأشعلت لنفسى سيجارة وألححت على عاطف لكى ينحرف — ولو مرة واحدة — لكنه أصر على استقامته ، ورفض أن يدخن معى..وصب لعناته على كل المدخنين ، وفعص السيجارة التى وضعتها بين شفتيه ورماها فى الرمال .. ضحكت وسألته :

— هل تعرف .: أول حب يا ولد ؟ .:

نظر إلى بغير اندهاش .: ثم قال :

— ثق أنه تم حجز مكان ثابت لك فى مقدمة الصفوف الأولى فى جهنم ! ..

قهقهت ، وقلت له ، ونظراتى تحلق فى سقف السماء المرصعة بالنجوم وبالسحب المتحركة :

— كانت امرأة بيضاء الوجه .. سمينة .. فى العشرين من عمرها .: وكنت أنا فى الخامسة من عمرى .. ويومها بكيت .. كنت خائفا منها وهى تداعبنى !

صاح عاطف بقرف :

ــ أعوذ بالله أنت شيطان ! ::

وقهقهنا بصوت عال.: وتجاوبت أصداء ضحكاتنا فى جنبات الصحراء الموحشة :. لكن عواء الذئاب عاد يوقظ الخوف فى أوصالى : : فحاولت أن أصفر النغمة العذبة الساحرة الأليفة :: لكن الكآبة كانت تنهشنى ، وأغمضت عينى ، فرأيت منى تنبثق من قلب الصحراء وتقرص أذنى وتعاتبنى :

ــ كنت تحب بيضاء الوجه ياعيل ! ::

صحت مدافعا عن نفسى : «كنت صغيرا لا أفهم ! ::»

وتمزقت الشفرة السرية بيننا :: أخرجت «منى» لسانها لتغيظنى :: فصحت :

ــ منى :. أين أنت الآن يا بنت :: وحشتينى :.

لكن صوتى لم يخرج من فمى المزموم بعنف ، وأنا أحدق فى ظلام الصحراء المخيف :

قال عاطف :

ــ نحتاج إلى زمن طويل لنتأقلم مع الكائنات هنا ! :.

قلت :

ــ شيء غريب يا ولد :: كأننا فى بلد غريب !

وازداد العواء المخيف ، وضخمت الصحراء الصدى المرعب آلاف المرات :. فأسرعنا إلى الداخل وأحكمنا إغلاق الأبواب والنوافذ و :: من تحت الغطاء الثقيل ، سألت عاطف :

ــ هل تحب خطيبتك ياولد ؟

وجاءنى صوته من تحت غطائه :

– لا أحب الكلام فى هذه الأمور العائلية :. فدع شئونى الخاصة و :: انكتم ! .:

سألته وأنا أخرج رأسى من تحت الغطاء :

– هل صارحتها بماضيك ؟ .:

ضحك ساخراً وقال :

– لست مجنونا يا غبى :: ثم إن هذه شئون خصوصية جداً و ..

حدقت فى ظلام الغرفة ، ازداد خوفى :. أضأت النور .. ونظرت حوالى .. الغرفة واسعة . . سريرى :: وسرير عاطف يبدوان كزورقين صغيرين تائهين فيها .. الستائر اونها كالح :: قديم .. دخنت سيجارتى .: وسألت عاطف :

– لو أن خطيبتك :: مثلا :: مثلا يعنى :: صارحتك بماضيها ! .:

أبعد عاطف غطاءه الثقيل من فوق رأسه وقال :

– اسمع .. دماغى سينفجر :: أطفىء النور :. ودعنى أنام .. وإلا .: والله .. والله .. سأحطم رأسك و ..

وعاد يغطى رأسه ، وبعد لحظات قال بصوت مكتوم :

– لماذا اضطر لتعذيب نفسى بالزواج من فتاة لها تجارب ! .:

وصدم قلبى :: شعرت به يضطرب بعنف داخل صدرى .. امتدت أصابعى إلى خطابات منى .. لا بد أن أقرأها :: لابد أن أواجه ماضيها المخيف .. مهما يكن :: مهما يكن ..

لـكن عاطف مد يده من تحت الغطاء ، وداس زر النور وأطفأه :: وساد الظلام :: ثم لسعني سؤاله :

– ولد :. هل تورطت في شيء ؟؟ ::

– . . . . . : : . : :

لم أجبه .. ظللت صامتا .. عاد يسألني :

– هل حدث بينكما شيء محرج ؟؟ ::

– : : : : : : : : :

مرة أخرى لذت بالصمت :: عاد يقول :

– تحرى الأمر :. فربما حملت من غيرك وتريد أن .:. انفجر صمتي ، قلت بغضب :

– أنت لا تعرفها .. أنت لا تعرفها ! ..

فقال بلا مبالاة :

– ولا أريد يا غبي ! .:

أسرعت إلى الغرفة الأخرى :: جلست خلف المكتب مهتاج المشاعر.. نحيت الجرائد جانبا بعصبية :: وفتحت أول رسالة من رسائل منى ! ::

: : : : : : : : :

: . : : : : : : :

على وجه المظروف كتبت بخطها رقم (١) .. كان الرقم بالقلم الرصاص.. وكان العنوان بالقلم الحبر : (القاهرة — مكتب بريد العباسية — يحفظ بالشباك.. الآنسة منى) :

كان المظروف مفتوحا :: عليه خاتم البريد :: وفى دائرة الخاتم :: تاريخ ١٩٧٠/١٠/٣١ وبأصابع مرتعشة أخرجت الرسالة .. وترددت :: ثم فردتها أمامى .. كانت مكتوبة بقلم جاف لونه أحمر .. وفى بدايتها : (الوحدة ٨٠٠٠٠ — جط ٩٠٠) ثم :: وتحتها مباشرة :: (عزيزتى منى).

توقفت عيناى عن القراءة .. إنه فارسها الأول .. صاحب هذه الرسالة :: واضح أنه مجند بالجيش حاليا .. أقصد وقت إرسال خطابه .. ترى من هو .. ماذا فعل بها .. ماذا فعلت معه .. هل .. هل ؟؟ ..

أدرت الرسالة ، قلبتها .. كان لابد أن أعرف اسمه .. آه .. اسمه (سعيد ..) هكذا وقع باسمه ابن ستين .. أشعلت سيجارتى الثانية ، وكدت أمزق الرسالة .. لابد أنها تريد أن أعرف أنها عرفت من هو أحسن منى .. لابد .. لكن لم لا أقرأ الرسالة لم لا أستمر فى اللعبة حتى نهايتها ؟.. سنرى يا منى .. أينا يملك عقلا أرجح ! .. سأرى كيف تتباهين بعقلك الغبى وتتجرئين وتعطينى رسائل حبك القديم : ومن أدرانى أنه قديم ؟؟ ..

سنرى ! ..

— « عزيزتى منى .. كيف حالك .. لعل الشهور القليلة التى مضت منذ

رأيتك آخر مرة ، لعلها تركتك دون ما تغير .. منى .. التى عرفتها وأحمل لها من الإعزاز فوق ما قد يكون فى تصورها ! »

توقفت عن القراءة .. نهضت مرتبكا .. اتجهت إلى النافذة .. أزحت الستارة القديمة المحملة بالغبار .. فتحت (شيش) النافذة وأعدت إغلاق الزجاج السميك .. وقفت أحدق فى رمال الصحراء .. فى الظلام .. فى النجوم .. فى السحب .. وصحت بانفعال شديد :

ـ منى .. أنت إنسانة مراوغة .. ماذا تريدين منى ؟؟ ..

و .. رأيت وجهها الحمرى ، يطل على من بين النجوم والسحب والرمال والظلام .. كانت تبتسم ببراءة الأطفال ، وعيناها تلمعان .. وشفتاها الشيقتان تتكوران وتطلقان صفيرا طويلا و ..

ـ « على باب الجامعة كان لقاؤنا الأخير .. كنت تتألقين فى ثياب جديدة تليق بواحدة مثلك تخرجت اليوم بتقدير (امتياز) .. وأحطنا بك نغنى أغنية الوداع .. وتواعدنا على تبادل الخطابات .. وجرت بيننا إحدى هذه المداعبات الكلامية التى كم أحببتها .. قلت لى :

ـ متى أتلقى أول خطاباتك ؟

وأجبتك بذكاء .. وغباء معا :

ـ ستصلين إلى منزلك لتجدى أول خطاباتى قد وصل بالفعل ؟ ؟

لقد كنت أنت غبية لأنك تصورت أننى يمكن ألا أفتقدك ..

لقد كانت بيننا ذكريات غالية داخل أسوار الجامعة .. وخارجها .. لعلك لا تعلمين أننى قد مزقت كل أوراقى .. وصورى .. وذكريات أيام

كثيرة من عمرى .. إلا القليل النادر منها .. ومن بين هذا القليل النادر كانت ورقة مزركشة بألوان مضحكه ، ملتصقة على ورقة سميكة تحمل اسم الطالبة : « منى » .. إن هذه الورقة المضحكة مازالت معى .. تؤنسنى فى وحشة الخندق .. وتعيد إلى آلاف الذكريات .. اكتبى إلى كثيراً ولا توقعى باسمك .. فما زلت أحفظ خطك .. الذى أرجو أن يكون على ما كان عليه من الرداءة والسوء لكى أطيل قراءة خطاباتك .. سأنتظرك أمام محل (آمون) بجوار البن البرازيلى .. ثانى أيام العيد .. الساعة الخامسة ..»

أغمضت عينى مرهقا .. كنت شديد الضيق ولا أعرف ماذا أفعل .. ضربت رأسى فى زجاج النافذة .. وتمنيت أن أمزق الخطاب .. كل الخطابات .. لكننى كنت قد دخلت إلى الجحيم ومن المستحيل أن أتراجع ! ..

. . . .

٥ . . . .

قلت والألم يمزقنى :

« ماذا فعل بها الكلب فى ثانى أيام العيد .. ماذا فعلت معه ؟ ؟ » .

وتمنيت لو تمكنت منها فى هذه اللحظة .. لو أن المسافات الشاسعة بينى وبينها تلاشت ووجدت نفسى معها .. فى بيتها الآيل للسقوط .. أمام أمها العجوز التى تتباهى بثقتها فى عقل منى .. سأمزقها بأصابعى وأسنانى وأقول لها :

ــ أنت فاجرة كاذبة .. ملوثة ..

لكن وجهها ظل أمام عيني مليئا بنظرات عينها وابتسامة شفتيها وسط الظلام والصحراء وأسرعت أواجهها بالرسالة الثانية لكن .. لكنني ترددت..

. . . .

. . . .

— ١٠ —

فى الصباح التالى لمحت وجهى فى مرآة الغرفة فعدت أواجه نفسى ، كانت عيناى متورمتين ، كان وجهى شاحبا .. فابتسمت فى سخرية وأكملت ارتداء ملابسى ، ولم أهتم بترتيب شعرى .. ذهبت إلى زميلى « عاطف » ولم أرد عليه ترحيبه بوصولى — ظللت صامتا غارقا فى الخرائط وأجهزة القياس و التحديق من حين لآخر فى عين الشمس ... دمعت عيناى .

قال عاطف أخيراً :

— سيقام لنا نصب تذكارى فى هذا المكان المخيف يا ولد !..

وضحكت منه ، ومن نفسى ، وقلت :

— خذها نصيحة منى يا عاطف . . لاشىء يستحق الاحترام أبدا !

وصاح عاطف باندهاش . . وقال :

— ماذا جرى لك يا إبليس : : لم هذا التشاؤم الأسود ؟؟

جلست على الرمال متعبا ، وقلت :

— أبدا .. كل ما فى الأمر .. أننى فقدت ثقتى فى الإنسانة الوحيدة التى انتظرتها ثلاثين سنة كاملة !...

جلس عاطف بجوارى :: وجه قلمه الرصاص السميك إلى أنفى :. وقال :

– كيف حدث هذا :: وماذا جرى لك ؟ :: إننا هنا منذ ٢٤ ساعة فقط :: فكيف تمكنت من اكتشاف هذه الأمور الفظيعة :: هه :. أخبرنى يا ولد :: كيف حدث هذا ؟؟

وحاول أن يضحكنى ، لكننى فزعت إلى العمل ، لائذا بالصمت أمام كل محاولاته للتسرية عنى ::

أخيرا صاح بضيق :

– لا أحتمل هذا :. نفى إجبارى :: وزميل مجنون مثلك :: حتما هذه مؤامرة على مستقبلى ! ::

وضحك :: وفشلت فى مجاراته ، فعاد إلى صمته :: وصارت الدنيا من حولنا كئيبة ! ::

هلت طفلة صغيرة بجوارنا :: نظرت إليها ، كانت شقراء لونتها الشمس بسمرة لطيفة وجعلت شعرها بلون الذهب :. وأخذت أرقبها وهى تستعيد عقالها البدوى من فوق الرمل وتحاول أن تضعه فوق شعرها :: وهى لا تكف عن الضحك :. ساعدها عاطف وداعبها بأبوة ، وسألتنا :: كلينا :: حيث كانت عيناها الخضراوان تنظران إلينا معا :

– أنتم مساخيط ؟؟ ::

وضحكت :: رغما عنى :. وقهقه عاطف :: وسألتها :

– لماذا ؟؟ :: ومن قال إننا مساخيط يا حلوة ؟

قالت :

– تعملان كالمساخيط وسط الصحراء ! ::

وسألها عاطف عن اسمها . قالت : فضيلة بنت الحاج جميل السهار !.:

قال عاطف :

ــ خفير الاستراحة ؟..

هزت رأسها ببراءة وشقاوة معاً .: وقالت : الغداء جاهز !.:

وعادت مهرولة إلى الاستراحة .: وخلفها سرنا ببطء وفى صمت :: توقفنا فى حديقة الاستراحة .. تبادلنا ــ فى صمت سخيف ــ إدارة طلمبة المياه الجوفية .. وضعت رأسى كلها تحت الماء الدافىء .. كان الماء يخرج من جوف الصحراء دافئا .. على عكس برودة الدنيا من حولى .. صاح عاطف :

ــ اسمع .: إذا كنت تريد الانتحار فابحث عن شاهد آخر غيرى !.:

رفعت رأسى أخيراً من تحت ماء الطلمبة ، وأدرتها حتى اغتسل عاطف :. ودخلنا غرفة الطعام .. رحب بنا الحاج جميل السهار .: بوجهه البشوش .. وتقافزت ابنته فضيلة من حولنا ،وأصر عاطف على أن يشاركنا الرجل وطفلته الطعام ، لكنه اعتذر بمودة وقال :

ــ عندما يكون للانسان زوجة وطفلة .. فإنه لايعرف للأكل طعما بعيداً عنهما ؟..

تبادلنا النظرات .: والابتسامات ..فى صمت .. وخرج الرجل وطفلته.: وانهمك عاطف فى التهام الأكل ، وظللت صامتا .. عاجزاً عن تناول طعامى !..

قال عاطف :

ــ أنت عيل ؟..

وقلت له :

–كل شيء صار كالملح فى حلقى .. كل شيء صار مراً !..

نظر إلى عاطف متعجبا .. وقال :

– هل ظهر لك عفريت ليلة أمس ؟؟ ..

لم أجبه .. لم أنظر إليه .. عاد يسألنى بإلحاح :

– هل أنت مريض ؟؟ ..

قلت :

– بل أشعر بخوف شديد !..

ترك الطعام وسألنى :

– تخاف وأنا معك .. أهذا كلام ؟؟ ..

أبدى عاطف اهتماما شديداً ..

حاول أن يضحكنى .. لكننى قلت :

– ظننت أننى قد انتهيت من كل مشاكلى يوم رأيتها .. وأن الحياة ستحلو لى معها .. كنت قد تعبت .. أرهقت .. سبع سنوات طويلة ، عشتها غريبا عن الأقصر .. عن أمى .. أجتر حلم العمر .. أن أراها .. ثم رأيتها ..

سألنى بحذر شديد :

– تتكلم عن .. مَنِ ؟؟ ..

سألته بفزع :

– ماذا تعرف عنها ؟؟ ..

قال عاطف :

– إننى لا أحب الكلام فى الشئون الخصوصية لأحد .. لكنها .. وأقسم لك .. فتاة عملية جداً ! ..

وتوقفنا عن الكلام .. انشغل هو بطعامه ، وحملت أحزانى إلى غرفتى .. وبذلت جهداً شديداً لكى أقرأ الرسالة الثانية .. لكننى طويت الرسائل ووضعتها فى قاع حقيبتى ! ..

. . . .

. . . .

– ١١ –

قال عاطف :

– يجب أن أوصى ببيع هذه النسخة من الجريدة فى مزاد علنى .. بعد وفاتى .. لأنها الجريدة الوحيدة هنا ..

قلت :

– لعلها أول جريدة تصل إلى الصحراء الغربية :

صفق عاطف مهللا .. وقال :

– أنت نطقت .. الحمد لله ! ..

ضحكت وقلت :

– لقد اشتريتها بالصدفة من المطار .. وجدت أعضاء البعثة يفعلون ذلك .. ففعلت مثلهم ! ..

سألنى عاطف :

– لكن .. كيف انفكت عقدتك ؟؟ .. لابد أن الحاج جميل السهار صنع لك حجابا بدويا !

ضحكت وقلت :

– فكرة رائعة .. لكنها لم تخطر ببالي .. للأسف ..

علق عاطف الصفحة الأولى من الجريدة في مسمار بالحائط وسألني :

– ما رأيك يا ولد .. نصدر جريدة حائط لأنفسنا هنا ؟ ! ..

أشعلت سيجارتي ، وقلت :

– أتعرف يا ولد .. لقد كدت أنتحر ليلة أمس ؟ ..

صاح :

– يا نهار أسود .. لماذا ؟؟ ..

قلت :

– ظننت أنني وصلت إلى نهاية العالم ! ..

سألني باهتمام شديد :

– ثم ! .. ثم ؟ .. قل .. تكلم .. انطق !

قلت :

– أبدا .. قلت لنفسي ببساطة .. إنها عندما أعطتني رسائلها المشئومة .. كانت تظنني إنسانا عاقلا .. وهذا هو التحدي الحقيقي .. أن أكون عاقلا .. أو أكون طائشا !

هلل عاطف ، وقال :

– وماذا قررت ؟ ! ..

قلت :

ــ أن أحتفظ بعقلى إلى أن :: أراها بنت القرود :: ولحظتها سيكون لى معها حساب عسير ؟ ! ::

سألنى عاطف :

ــ لا أعرف كيف أحتمل باقى أيام الأسبوع .. فى هذا الجحيم ؟ !

قلت :

ــ هانت :. مر يوم ؟ ! ::

ولفنا الصمت المعتاد :. فأخذنا نقرأ عناوين الجريدة المعلقة على الحائط أمامنا :.

« كيسنجر يبدأ مباحثاته فى القاهرة بعد غد :. على ضوء قرارات القمة العربية فى الرباط :. »

« استخدام الكلور فى تنقية مياه الشرب يسبب الإصابة بالسرطان ؟ .. »

« مرفق المياه غير مسئول عن تلوث مياه الشرب بالديدان ؟ »

« على خليل يرفض اللعب مع الزمالك بالاسكندرية قبل أن يتقاضى ثلاثة آلاف جنيه مقدما ؟ :: »

« طبق من الكسكسى يقتل شرطيا ويصيب آخر :. »

« ٣ فتيات يسرقن ٢٠ ألف جنيه :: »

« بطل الجمهورية فى الرمح يتزعم عصابة لخطف البنات والسيدات فى الزمالك .. جهات الأمن تضع حداً .: (الأشغال الشاقة لثلاثة خطفوا سيدة) .: و :: « حملة لجمع السكاكين والنشالين » ..

قال عاطف :

— اسمع هذا النبأ .. مخزون القمح فى العالم يكفى ٢٧ يوما فقط !

.. أما مخزون الأرز .. فهو صفر ؟ .. تصور يا ولد .. أننا بأبحاثنا هنا نصنع معجزة فعلا .. سنزيد من مخزون القمح والأرز .. سنفعل شيئا يليق بكرامة بلدنا !..

اجتاحتنى رغبة عارمة فى الأكل .. أنبنى عاطف لأننى رفضت أن آكل معه .. ذهب إلى الحاج جميل السهار ، حاول التفاهم معه حول شىء من الطعام لى .. أخيراً عاد إلى بشىء يؤكل وضعه أمامى بقرف .. وهو يقول :

—سنموت هنا .. دون أن يدرى بنا أحد ..

قلت :

— إن شاء الله ! ..

— وصمت ببلادة .. ازداد انفعال عاطف ، فوقف وصرخ فى وجهى :

— خطيبتى وحشتنى جداً يا عالم ! ..

سألته :

— جميلة يا ولد ؟؟ ..

أدار وجهه .. وقف يحدق فى الصحراء .. بعد لحظة عاد يقول :

— يجب أن نرتب أمر وسائل الاتصال .. الطائرة تأتى إلى هنا مرة كل أسبوع .. الصحف طبعا مرة فى الأسبوع .. التليفون يجب إصلاحه فوراً .. محافظ هذه الخرابة لابد أن يأتى أو يرسل مندوبا عنه ليدفننا هنا .. أو على الأقل يواسينا .. الراديو الترانزستور يستعمل بنظام حتى لاتنفد بطاريته !..

قاطعته باقتراح بسيط :

ـ يمكننا استعمال إشارات الكشافة والبحارة : : فلا تفزع :: المهم أن نكتشف اتجاه الرياح فى الوقت المناسب ! ::

عاد عاطف يصرخ :

ـ أنت همجى : . همجى ! : :

فجر كل الذكريات : : جعلنى أكتشف أننى أضحك على نفسى : : جعلنى ـ المجرم ـ أصفر بشفتى مناديا منى :: هممت بالعراك معه :: بصفعه بتمزيق قميصه . : بالاعتراف إننى أتعذب بسببها :. لكننى فوجئت به ينحط على مقعده . . وهو يلهث ويغطى وجهه بيديه ويغيب عنى فى صمت طويل:: شعرت بالإرهاق . . وسألته :

ـ متى نبدأ العمل ؟ ! ::

لم يرد . : تثاءب . . مد ساقيه : . طرقع أصابعه . . دون أن يخجل من لمعان دموعه على وجهه الأسمر النحيل . : وقال بصوت ملىء بالأسى :

ـ أتعرف :: إن أمى تتفنن فى صنع الأرز والسمك الشبار : . وسأجعلها تبوح بسر الصنعة لخطيبتى و . :

صحت فيه ، لأ شغل دماغى عن أى شىء آخر :

ـ الضمير الوطنى : . وتحقيق الاستقرار العائلى : : يحتم عليك : : أيها المواطن المبجل أن تكف عن هذيانك وتثاؤبك :. وأن تتحرك بسرعة . : لنبدأ العمل . : فنحن هنا لنجهز الخرائط والأبحاث المطلوبة لكى :. لكى:: قل معى يا غبى :. لكى :: لكى ::

اقتربت منه ، وهززته ليكمل بقية الخطبة العصماء :: لكنه نظر إلى ببرود :: وقال :

– اهمد يا خالد :: وإلا وضعت أصابعى فى عينيك ! .:

:: انفجرت ضاحكا :: وجذبته من شعره حتى صرخ :: وجرى يطاردنى فى غرفه الاستراحة الواسعة .: فقلبنا المقاعد ، وخبطنا الأبواب ، وانتهت المطاردة فى المطبخ ، حيث خرجت زوجة الحاج جميل السهار فزعة ، و .. هللت ابنتها فضيلة ، وقالت :

– يا مساخيط ! .:

وأخرجت لنا لسانها ، بينما عاتبنا الحاج جميل السهار بغضب ، وقال :

– ستفسدان الاستراحة ، وهى عهدة حكومية .:

أخذ عاطف يساعده فى إعداد الشاى ، وتشاغلت أنا بمداعبة البنت فضيلة :: قلت لها :

– لى حبيبة لها لون وجهك هذا :: لكن عينيها سوداوان .: وشعرها أسود :: لكنها طفلة مثلك واسمها منى :

سألتنى : بنتك يامسخوط ؟ ! ::

قهقه عاطف . ونظرت إلى أمها من خلف برقع مرصع بالخرز الملون.: يتدلى من عقالها الباهت كاشفاعن عينين خضراوين و :: درت حول نفسى ، فسألنى الحاج جميل السهار :

– خالد أفندى :: حالك لا يعجبنى ! ::

قال عاطف : مجنون منى ! ::

صرخت فيه : من فضلك :: لا أحب الحديث فى شئونى الخصوصية : و :: تركتهم ضائق الصدر ، غادرت المطبخ والاستراحة :: حاولت اكتشاف موقعنا الجغرافى على سطح هذه الصحراء المجهولة :: لكن صوتى فاجأنى :

— منى :: يا بنت القرود :: سأضربك حتى أدمى وجهك :: صدرك :: جسمك كله ::

: : : : : : : : : :

: : : : : : : : : :

— ١٢ —

فى الليل :: صرخ عاطف وانتفض من فراشه مرعوبا :: وظل يجرى فى الغرفة .. أضأت النور بارتباك شديد :: ووقفت بصعوبة :: عجزت عن سؤاله .. ثعبان :: حية ! ::

قلت وأنا مذعور :: خائف :: أكاد أنهار على الأرض :

— كان يجب أن نحتاط :: ونتسلح لثعابين وحيات وعقارب الصحراء .. لكن صوتى لم يخرج من حلقى إلا بنداء مرتفع :: ملهوف :

— يا حاج جميل .. يا سهار :: النجدة ! :: و ::

جاء الرجل مهرولا .. مستعيذا بالله من الشياطين ومنى أنا وعاطف ، وبصعوبة شديدة ، أفهمناه الأمر :: فأخرج خنجره من حزامه ، وبعد دقائق كان يحمل جثة الثعبان المخيف ويخرج فى صمت ! ::

فشلنا فى النوم :: عجزنا عن الكلام :: أشعلت سيجارتى وأعطيت واحدة لعاطف أخذ يدخنها وهو يسعل حتى دمعت عيناه .. فضحك وضحكت معه و .:. تدريجيا بدأنا نتكلم .. قلت له :

– من عشرين سنة ، كنت فى السابعة ، أخذنى خالى إلى أحد سراديب الفراعنة ، وظل يحفر ويحفر ، على ضوء فانوس طلب منى أن أحمله بحرص حتى لاينطفىء :: وسألته عم يبحث :: فمسح العرق الغزير عن وجهه وشاربه ، وقال :

– جدى خبأ كنزا هنا من سنين طويلة :: ولا أحد يعرف مصيره ! وخبط بفأسه عشر خبطات متتالية ، وهو يكز على أسنانه فى غيظ شديد ، ثم توقف لحظة ، وحذرنى وهو يلهث :

– إذا قلت لأحد :: حتى لأمك :. شيئا .. عن الكنز .. فسأذبحك.: أتفهم ؟ ::

ولما كان خالى من عينة أولئك الرجال الذين يلجأون للجبل كثيرا ، هربا من البوليس ، فقد ملأنى الرعب ، وظللت صامتا ، حتى أفزعنى فزع خالى :: عندما رأى ثعبانا أضخم من ثعبانك يا عاطف .. ولا أعرف كيف تمكن بفأسه من رأس الثعبان :: ولكننى عندما رجعت إلى أمى فى آخر تلك الليلة ، ظللت أبكى حتى وعدتنى بألا أذهب مع خالى مرة أخرى ؟ ..

ضحك عاطف ، وقال :

– يعنى أنت رجل خرع من يومك ؟ ! ..

قلت :

– الله يخيبك ! ::

و :: كان النوم قد هرب منا إلى الصحراء ، وامتزج أرقنا بعواء الذئاب ، وعويل الرياح :: فى جنبات الصحراء :: وأصبح ثقيلا أن أفكر فى شىء آخر غير البنت منى ::

– ماذا تفعلين الآن يا بنت ؟ :: إن نبض قلبى على وشك أن يجف قبل أن أراك ؟ ::

قلت بألم :

– تصور يا ولد :: البنت أصرت على مهلة :: قبل أن نتزوج ! ::

قال عاطف :

– لابد أنها فهمتك جيداً :: فأنت فعلا ولد طائش ! ::

و :: أوقفت الحديث فجأة بالتثاؤب عدة مرات متلاحقة :: كنت أخشى أن أبوح له بأمر الرسائل التى تعذبنى ::

: : : : : : : : : :

: : : : : : : : : :

– ١٣ –

قرر عاطف ، أن أكون أنا « موظف الإعلام المختص ببعثة مصلحة التطور لإجراء البحوث والدراسات فى الصحراء الغربية :: »

هكذا كانت صيغة قراره المفاجىء ، عندما وصلت عربة « جيب » من المحافظة تدعو هذا الموظف المجهول إلى مقابلة عاجلة :: ولما لم يكن لدينا

هذا الموظف الهام :: فقد رضيت أن أقوم بتمثيل دوره متبعا نصائح عاطف ، الذى كان من رأيه ، أن أهذب بقدر الإمكان من مظهرى وأن أكون قدر المستطاع — حذراً حتى لاتغطينى الرمال والأتربة ، طوال الطريق :: وأخيراً ودعت عاطف قائلا :

— تركت لك وصيتى فى حقيبة السفر :: وهى كل أملاكى :: فاحفظها فى نن عينك ، حتى تأتى عصفورتى منى :: ولاتنس أن تخبرها أننى انتظرتها طويلا لكى ::

قاطعنى عاطف ، ساخرا :

— الشىء الوحيد الذى تجيده ، هو الإعلان عن أحلامك المحبطة :: أما الإعلام عن عملنا هنا :: فله الله ؟ ::

ثم :: عندما ودعنى عند باب العربة الجيب قدم رجاء رقيقا للسائق ، بأن يحافظ على شخصى الكريم وأن يعيدنى إليه سالما : وهمس فى أذنى برجاء سرى جدا :: لكننى فضحته بقولى :

— آه لو أعرف خطيبتك المخدوعة فيك ياخلبوص ؟:: وضحكنا !:: وانطلقت العربة الجيب ::

حاولت أن أشعر بالأهمية ، والعربة تطير بى عبر رمال الصحراء :: ساترا عينى بنظارة سوداء واقية من الشمس الحارة ومن الرمال ، و :: وأعطيت سيجارة للسائق إعجابا بخفة دمه وابتسامته اللامعة على وجهه المعفر ، وعزمت نفسى على سيجارة أخرى :: وحاولت أن أشغل عقلى بأمور تافهة عن الزمان والمكان :: وأطلقت صفيراً حاداً طويلا :: فجاءت سمرائى منى ، رأيتها بوضوح وسط سحابات الغبار :: أخرجت لى لسانها لتغيظنى :: وقالت :

– « لابد أن تفهم ياولد .. أن الزمان والمكان .. هما الضمان لحايتنا ؟ .. »

استمر حوارى معها وقتاً طويلا ، عاتبتها على رسائل ماضيها التى أفزعتنى .. بدأت تشرح لى وجهة نظرها فى المسألة كلها .. لكن صوت السائق ارتفع يسألنى :

– هاتعملوا لنا هنا انفتاح امتى إن شاء الله يا سعادة البيه ؟! :

نظرت إليه طويلا .. تنهدت ، لمست حافة نظارتى .. كما كان ناظر المدرسة الابتدائية يفعل وقلت :

– المسألة يا حضرة المحترم ، أن الفكرة لابد أولا أن تتبلور فى صورة ملائمة لتفكير عامة الشعب ، ولعلك مثلى ، ترى أن عقول المصريين قادرة على ذلك منذ فجر التاريخ .. لكن .. على كل حال .. وبإذن الله .. سنبدأ العمل هنا .. أقصد أننا بدأنا أخيراً .. ولدينا رصيد أجيال عديدة من .. الصبر .. لأن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة يا صاحبى !..

قال بثقة كبيرة :

– الصحراء هنا مليانة كنوز .. ذهب .. وحديد .. وفضة .. وبترول .. لكن .. مين يضرب إيده فى جوفها ويطلع لنا الكنوز دى ؟

قلت :

– معك حق ؟ ..

وعندما توقفت العربة الجيب أمام مبنى المحافظة اهتززت للأمام وللخلف ، وصدمت جبهتى بزجاج العربة ، وعندئذ لاحظت ببساطة أننى

لم أجب على سؤال السائق ، وأن فى كان مشغولا بالتدخين ، واجترار ألفاظ خطابية طوال الطريق .. وأنى كنت شديد التوتر والحزن ، فقلت لنفسى :

– لو كان الحزن رجلا لقتلته ومثلت بجثته على قارعة الطريق !

وتمنيت لو أن منى فاجأتنى بحضورها .. لأحسم الأمر معها، لكن .. لكننى هبطت من السيارة متجهما وحاولت أن أتذكر طلبات زميلى عاطف لتسهيل عملنا بالصحراء .. لكى أنقلها لسيادة المحافظ .

وفى مكتب مدير العلاقات العامة ، جلست أدخن من علبة أجنبية فاخرة، وشربت القهوة الجيدة .. وثرثرت مع موظفة جميلة اسمها «شيرين».. وعرفت أنها من الإسكندرية .. وأن أمها يونانية .. وأنها فرحت بتعيينها هنا .. وصدقتها لأنها كانت شديدة الجمال ، وأخيراً رحب بى مديرها الأنيق السمين ، وطلب منى أن أوقع على « سركى » لأتسلم رسالة هامة وردت من القاهرة ، وفعلت كل ما طلبه ، وتسلمت الرسالة الهامة ، و .. فوجئت به يودعنى بمودة ، معتذرا بأن السيد المحافظ مشغول باجتماع هام لدراسة زيادة طواحين الهواء لرى منطقة البدو فى الصحراء .. وأنه بالإمكان تدبير موعد مع سيادته – إذا كنت أنا أريد ذلك .. فيما بعد .

و .. صافحت شيرين ، وضغطت يدها ، ودعوتها لزيارتنا ..

فى استراحة الحكومة على مسافة مائتى كيلو متر ، فى قلب الصحراء، فرحبت بالدعوة .. ووعدت بالمجىء .. و ..

وجدتنى مرة أخرى ، فى عهدة سائق العربة الجيب .. ليعود بى من نفس الطريق : تذكرت تعليمات عاطف ، وضحكت بعصبية لفتت نظر السائق ، لكننى قلت .. أمازحه :

– أحياناً يحلم الإنسان وهو يقظ ! ..

قال بطيبة قلب :

– خير يا بيه .. اللهم اجعله خير إن شاء الله !

وأخذت أحكى له أحلامى ، وأخذ هو يفسرها بطريقة مسلية جدا .. طوال الطريق ! ..

. . . .

. . . .

— ١٤ —

كان عاطف ، يساعده ، الحاج جميل السهار ، يقوم بتحديد مساحة رملية بخطوط بيضاء على مسافة كيلو من الاستراحة .. عندما اقتربت منهما فهلل عاطف ، وسألنى :

– سبع .. أم ضبع يا ولد ؟ ..

ضحكت وقلت :

– يجب أن نواصل العمل ليل نهار ، للانتهاء من إعداد الخرائط والأبحاث .. لأن وفدا أجنبياً هاماً سيصل بعد أسبوع .. و ..

أخذت أقرص أذنى .. لأدفئهما .. كان البرد قارسا .. طلبت شايا بدويا من يدى عم الحاج جميل السهار .. فرحب بذلك بأبوته الحانية ، وانصرف إلى خيمته القريبة .. فأخبرت عاطف بتفاصيل الرحلة المثيرة ، ويبدو أنه صدم .. إذ وقف يبحلق فى الصحراء .. وفعلت مثله فلاحظت أن الغروب ساحر .. تلونت السحب بحمرة قانية و .. بدأ الظلام يزحف علينا من الشمال والجنوب ومن الغرب والشرق .. وتحركنا ببطء فوق الرمال .. باتجاه خيمة السهار .. حيث تمددت فوق فراش من فرو الخراف .. وأخذت أهمس لها :

– حبيبتى .. طال انتظارى .. هيا أقبلى .. لننطلق مثل عصفورين .. ونمارس الحب فى هذه الصحراء .. ونتحرر من كل المخاوف و ..

وقال عاطف :

– المفروض أن نبدأ بعد شهر فى إقامة مشاريعنا الجديدة هنا .. أتعرف يا حاج جميل .. سنبنى هنا مصنعا .. مصانع كثيرة .. لتصنيع كل شىء هنا .. الرمال .. والزلط .. والزرع .. والشجر .. والمواشى .. والألبان والدجاج .. والخراف .. سنملأ هذه الصحراء بالمبانى الجديدة .. ونزرع كل أحلامنا هنا ..

أعطاه السهار كوب الشاى .. وأعطانى كوبا مماثلا .. كانت الأكواب كلها من الفخار السميك .. محلاة بنقوش بارزة .. لم أتبينها فى الظلام .. وكانت (راكية النار) ترسل بصيصا من اللهب يتراقص بظلال كثيرة على باب الخيمة وعلى وجهه الأسمر الضيق .. أخيرا قال :

– والأجانب .. هل سيبقون معكم هنا ؟ ..

كان واضحا أنه مهتم جدا بالإجابة .. فتركت عاطف بحدثه .. وسرت مبتعدا عنهما .. أخذت معى كوب الشاى .. وجلست فى الظلام .. أخذت أجرى تجربة عاطفية :: أستحضر منى .: أجعلها تأتى لتؤنسنى لتشد من أزرى .. لأعاتبها .: وامتزج الحلم بالواقع .. ورأيتها معى .: بجوارى :: وهمست :

— أين كنت يا منى ؟ ::

فقالت بعينيها :: بعقلها :: بلمسة أصابعها :: برعشة شفتيها :

— أيها الولد الطائش ماذا جرى لك ؟ .: إننى بداخلك .: أتدفق فى شرايينك .. مع أحلامك التى يجب أن تتحقق :: يجب :: يجب :: أتسمعنى ؟.:

همست :

— أسمعك .. بعقلى :: بقلبى .. أسمعك :: اعطينى قبلة يا بنت القرود ! ::

وضممتها بذراعى .: ضممتها بعنف .. وانحنيت أقبلها فانكفأت على وجهى ، ودخل الرمل فمى .. وانسكب الشاى واقشعر جسدى من الألم والبرد ، وهرولت إلى النيران المتوهجة أمام خيمة السهار ! ..

. . . .

. . . .

لا مفر من الكتابة إليها .. ستكون فرحتها عظيمة دون شك .. لم نتبادل الرسائل من قبل . . كنا نقول كل شيء بوضوح . . وعندما نفترق ، لم يكن هناك ما يقال :. سوى الشعور بالفقد . . لكن . . كيف أقول لها كل ما أريده ، كتبت في رأس الصفحة :

« الصحراء الغربية في ١٤ فبراير ١٩٧٥ .

« عزيزتي مني : :

شطبتها وكتبت .. حبيبتي مني :. ثم .. لم أكن أعرف من قبل أن الكلمات سجن رهيب . . وأن الحروف تخنق مشاعري . . تحصره في مجرد كلمة « أحبك » حروف أربعة خرساء .. لا تشع حرارة الحب وتفجيراته الذرية الدقيقة الرهيبة غير الملموسة .. في قلبي .. إن الكلمات لا تنقل لها نبضات متوهجة في عقلي . . لكن . . لا مفر من الكتابة اليها . . عدت إلى الورق .: وكتبت . .

« توأم عقلي .. نبضة قلبي .. سر الأسرار في عروقي ..

كلام سخيف جدا .. لكن .. ليس عندي غير ذلك .. فاحتمليه يا بنت القرود ، هل تعلمين أنني كنت أبحث عنك على جسر الترعة في غرب الأقصر ، وفوق فروع شجرة توت . . وفي داخل جميزة ختمتها أنا بسكيني فتحتها برفق فدمعت لبنا أبيض لزجا .. وأسلمت رحمها للشمس حتى استوت جميزة حمراء أكلتها ومنحتها عصارة الحياة بداخلي ، وأضفت لها عصير البرتقال

والتفاح والعنب ورحيق الليمون الساحر .. ورائحة الفل والياسمين .. ومزجتها بضعف الموز وانسيابه .. ودلال فروع الصفصاف ، وخضرة الحقول ورشاقة الطيور الملونة ، وحفرت لك تجويفا فى صدرى ، فى جزء من رئتى .. وقلبى .. ومنحتك كل أشواقى وشهواتى وأمنياتى الملتهبة .. ولكن.. ألا تكفيك حضانة ٢٧ سنة كاملة .. لماذا إذن تتلكئين يا منى . . . . مزقى ضلوعى . . وانبثقى الآن فورا . . هيا يا بنت امتطى أول طائرة وأقبلى .. ألقى بنفسك فى أحضان الهواء وأقبلى .. ماذا دهاك .. ألا تشتاقين إلى .. ماذا يمنعك من الحضور . . تسلحى بكل أحلامنا وأقبلى . . فوحدتى قاسية . . قاسية .. لدرجة أننى هنا فى هذه الصحراء أضعف من جنين غامض الحلقة ، مجهول الهوية ! »

. . . .

. . . .

طويت الرسالة ، فى انتظار قدوم الطائرة بعد يومين لأرسلها إلى القاهرة .. ولم تكن هناك وسيلة أخرى للاتصال بالدنيا ! . .

. . . .

. . . .

— ١٦ —

كانت الصحراء تحيط بنا من كل الجهات . . وبجوارنا أحد البدو يقود أغنامه وجماله .. ويحيينا بكرم شديد .. ثم توقف وسألنا :

— هنا بترول كثير .. أشم رائحته من تحت سابع أرض — ثم قال باندهاش شديد ، كمن اكتشف أمرا غريبا :

– أمال فين المكن ؟ .. حطلعوا البترول بايديكم ؟ .. وضحكنا معه ، وحاول عاطف أن يشرح له مهمتنا هنا .. وادعى الرجل أنه فهم .. ثم قال :

– كان الخواجات هنا كتير . . لكنهم سافروا وما حدش رجع منهم تانى ! . .

قلت له :

– اطمئن ياحاج .. اطمئن لقد جاء المصريون أخيرا . .

ولحق الرجل بأغنامه وإبله . . مشوحا بيده وخبزرانته . . زاعقا بألفاظ لا أفهمها . . حتى ابتعد عنا . . تبادلت النظرات مع عاطف . . ثم عدنا للعمل .. وتناثرت الرمال فوق الخرائط ، وأطارها الهواء الشديد ، وجريت وراءها وعدت بها ، ووضعت زلطة كبيرة فوق طرفها و . . وضعت الطرف الآخر تحت ركبتى ، وأخذت أحدق فى الرسومات . . وأتخيل كيف ستصبح منشات ضخمة صاخبة هنا و . .

قال عاطف :

– لابد أن آخذ عينات من جوف الصحراء ! ..

وهرول إلى الاستراحة ، وعاد بفأس وجاروف .. وظل يحفر ويحفر .. حتى أنهكه التعب . . فأخذت منه الفأس وبدأت الحفر حتى بللنى العرق ، ولسعتنى يد الفأس وورمت أصابعى .

وسألنا الحاج جميل السهار ، وهو يحمل إلينا الشاى :

– العقل والدين يا حضرات . . عن أى شىء تبحثون ؟ . .

قال عاطف :

– أبدا . . نريد عينة من جوف الأرض ! : :

سأل الرجل باندهاش :

– والمكن ؟؟ . :

جلست أشرب الشاى ، وقلت بضيق :

– ننتظره من ألف عام : : كما تعرف ؟ : :

هز رأسه ، وغرق فى صمت طويل ، ثم قام وحمل الفأس وظل يحفر ويحفر حتى غطت الحفرة نصف جسده الفارع : : وسألنا مداعبا :

– هيه هل تريدون الوصول إلى سابع أرض ؟ : :

وضحكنا ، وأخذنا عينة كبيرة من تحت قدميه ، وعدنا إلى الاستراحة . : وضعناها أمامنا على المنضدة ، وأخذنا نبحلق فيها بغباء شديد : : فركناها بأصابعنا . . شممناها بأنفينا : : تذوقناها بلساننا . : ثم : : جلسنا مهزومين : : أخيرا قال عاطف :

– هل تركونا هنا .. لنضرب الرمل : : ونوشوش الودع ؟ ؟ : :

ضحكت وقلت :

– أعصابك يا عيل ! . :

ضرب المنضدة بيده فى عصبية زائدة : : وظل يكلم نفسه :

– البحث هنا يحتاج إلى مكن : : آلات : : أجهزة حديثة : : وهم يعرفون هذا .. فلماذا تأخروا .. لماذا ؟؟ . :

قلت مداعبا :

ــ أزمة مواصلات ؟ ! ::

فصرخ فى وجهى ، وقد احمرت عيناه من الغيظ :

ــ ولد طائش :: جيل طائش :: زمن كله طائش ! ::

صفقت له بحماس شديد .. وقلت لأغيظه أكثر :

ــ أعد يا عيل :: أعد ؟ ! ::

وجريت من أمامه حتى لا تصيبنى المسطرة الطويلة التى تسلح بها وأخذ يطاردنى ! ::

: : : : : : : : : :

: : : : : : : : : :

ــ ١٧ ــ

توقفت العربة الجيب أمام باب الاستراحة :: وأطلق سائقها النفير مرات متلاحقة ، أطل عاطف :: ثم صرخ كمن لدغه ثعبان :

ــ خالد :: بنت :: بنت ! ::

وأسرعت أطل معه من النافذة ، فرأيت وجه شيرين :: لوحت لها بيدى :: لوحت لى :: وهرولت أمام عاطف الذى كان يلح فى سؤالى :

ــ من هى ياولد :: من هى ؟ أين عرفتها ومتى ياوغد ؟ ! ::

صافحت شيرين :: دعوتها للهبوط من العربة :: وصافحت السائق :: ودعوته لكوب من الشاى :: فاعتذر بأدب :: هبطت شيرين من العربة :: وسندتها بيدى ، فغاصت أصابعى فى لحم مثير ، وصمم عاطف على أن

يصحبنا السائق إلى الداخل و :: أعطتنى شيرين رسالة قادمة من القاهرة :: قائلة :

— برقية عاجلة :: وصلت ليلة أمس فقط :: قلت أحملها لكم بنفسى !::

تنحنح عاطف بضيق :: قدمته لشيرين :: وقدمت شيرين له :: وأعطيته البرقية . . فتحها مدعيا الاهتمام :. ثم صاح بسعادة :

— اسمع يا خالد :: إنهم :: « قادمون خلال ساعات » :: امضاء ::

قلت بعبط شديد وفرح غامر :

— طظ ! . :

انزعج عاطف ، ادعى انه انزعج :: وضع يده على جبهتى وصاح :

— مريض ؟ . : لابد أن تستريح فورا :: ساعدينى يا آنسة شيرين لنحمله إلى فراشه . . لابد أن تنام فورا يا أستاذ خالد ! ::

ضحكت . . قهقهت :: وقلت لها :

— لا تندهشى : . إننا وحيدان من أسبوع فى الصحراء : وحيث إننا كنا مرفهين جدا .. ومدللين جدا فى القاهرة :: فقد صدمنا و :: قالت ، وابتسامة مثيرة تضىء وجهها الجميل :

— مفهوم . . مفهوم ! ::

ثم نهضت لتعود .: وسبقها السائق :: لكننى أقسمت بأغلظ الأيمان أن تظل معنا للشاى .. للغداء .. للعشاء :: فقالت :

— سيصلون بعد ساعات :: ووراءنا عمل شاق هنا ! ::

فشلت محاولاتى :: ومحاولات عاطف :: فودعناها حتى باب العربة :: بأسف شديد ! ::

وقال عاطف :

– آه :: لو لم أكن قد خطبت سعاد ؟ ! ::

صحت :

– اسمها سعاد ؟ :: لقد عرفت اسمها :: عرفته ::

قاطعنى بحزم مضحك :

– من فضلك ::

فقلدته ساخرا :

– لا تتحدث فى شئونى العائلية :: الخصوصية ؟ :: ها :: ها :: وضحكنا من أعماقنا :: ثم قال :

– بنت حلوة جدا ؟؟ ::

قلت :

– لأنها الوحيدة فى هذه الصحراء الرهيبة ! ::

قال :

– أختلف معك بشدة ! ::

قلت :

– اختلف كما تشاء :: لكن المهم الآن :: من هم هؤلاء القادمون إلينا بعد ساعات ؟ ::

قال :

ــ وفد أجنبي :: ومندوبون من مصلحة التطور :: أكيد ! ::

قلت :

ــ هيا اذن نفرش لهم الرمل :: ونمد البساط الاحمر :: وننثر الورود:: شيء غريب :: تشرفنا :: ماذا سنفعل لهم ؟ ::

قال عاطف :

ــ نعد خرائطنا .. ونتائج أبحاثنا ! ::

قلت بغيظ :

ــ اننا لم نفعل شيئا . :

قال عاطف :

ــ يخرب عقلك . : وسهرنا الليالى الطويلة : : والعينات والخرائط و.::

قلت :

ــ لا يكفي :: ان المشاريع الجديدة هنا يجب أن تقوم على أساس علمى دقيق : : والآلات والاجهزة لم تصلنا حتى الآن ! ه .

قال عاطف :

ــ ليتهم يحضرونها معهم ؟ ..

صحت بفزع :

ــ لن أبقى هنا يوما آخر : : لابد أن أعود : : أتفهم : : المصلحة مليئة بالخبراء والمهندسين : :

صمت عاطف لحظة طويلة :: ثم قال بفزع :

– وإذا أصر المدير على بقائنا هنا ؟ ! :؛

نظرت اليه بخوف : : وهمست :

– سأرفض البقاء هنا . . وليحدث ما يحدث ؟ .:

: : : : : : : : : :

: : : : : : : : : :

— ١٨ —

المكان – ركن فسيح من هذه الصحراء المخيفة :

الزمان – بعد ساعة واحدة من الآن ؟ : :

الديكور : أشجار : : يجب استيراد أصناف راقية من الأشجار ولتكن من جبال النمسا وسويسرا ولبنان ! : .

الاضاءة باهرة ، شديدة ، تعمى الابصار أولا ثم تدريجا نكتشف أنها من كشافات ضخمة فى مقدمة سبع سيارات يهبط منها سبعة شبان رياضيو الاجسام ، فى غاية الاناقة وهم يخطون إلى « خشبة المسرح » التى تفرقع فوقه الآن صرخات امرأة تلد .. وتعزف العواصف والرياح والرمال الثائرة الموسيقى المصاحبة ، وتختلج النجوم فى سقف السماء ، ويميل القمر على قرص الشمس ، ويتهامسان لحظة ويلمع البرق ويضيء الظلام المختلط بالنهار بالسحب بالامطار بالجبال بالصحراء بالأنهار ويحدث الميلاد ! : .

تولد « منى » أنثى كاملة مثيرة ناضجة ويحيط بها الشبان السبعة :: ويرقصون معها على التوالى :: واحدا بعد الآخر :: وتبدأ الرقصة بقبلة على أطراف أناملها ، وتنتهى الرقصة بنفس الطقوس :. يركع العاشق على إحدى ركبتيه ويمد يده إليها فى ضراعة وتوسل ، فتمن عليه بأطراف أناملها فيلثمها بتعبد ، ليحل محله الراقص التالى .. و ..

تقدمت ، أحمل فى يدى فرعا من شجرة ساحرة ، خضراء،وفى يدى الأخرى فأسا :: وأتعبت الأنوار الباهرة عينى فسالت دمعتان على وجهى و :. وصحت فى الشبان منذرا متوعدا :: لكنهم أحكموا الدائرة حول منى واستمروا فى الرقص والتهليل،وتمكنت أخيرا من القبض على ذراعها فجذبتها غاضبا إلى خارج المسرح ، وظلت تسقط و :. تهوى :: إلى قاع سحيق لا أراه .. وهبطت خلفها زاعقا من الفزع :: لكننى لم أصل إليها.: فارتفع صراخها وامتزج بزعيقى :: كنت أزعق .. أزعق فى هلع شديد و::

صفعنى عاطف على وجهى مرتين ، ثم سكب كوب ماء بارد على وجهى ، فانتبهت .: وتلفت حولى :: وصحت بارتباك :

— منى .. أين منى يا ولد .: سقطت منى هنا :. ضاعت ! .:

ضحك عاطف ، وضرب كتفى براحته عدة مرات ، وقال :

— لو أننى بقيت معك يوما آخر :: فحتما سأفقد ما بقى من عقلى !::

ثم صاح بمرارة :

— يا بنى ارحمنى .. وارحم نفسك ..

قلت باندهاش شديد :

— لماذا أنت غاضب هكذا ؟ .. لقد كانت منى هنا .. كانت على خشبة مسرح ، وكان ..

وأسرعت مفزوعا إلى نافذة الغرفة ، أزحت الستارة الثقيلة المعفرة بالتراب ، ونظرت من خلف الزجاج إلى الصحراء .. ثم فتحت النافذة وأطلت النظر إلى الصحراء .. وازداد ارتباكى .. كانت الصحراء خالية .. مظلمة .. لا شيء بها غير عواء ذئاب بعيدة ، وعويل رياح .. و .. واستغاثة طائر مجهول ضل طريقه و ..

عدت إلى فراشى شديد الإعياء ، إذن فهو كابوس سخيف لكن .. لكن لماذا ؟ ..

نظرت إلى عاطف ، فوجدته قابعا فى فراشه مهموما .. سمعته يقول دون أن يهتم بتوجيه كلامه لى :

— المشكلة أننى أتغرب لأول مرة فى حياتى .. عشت كل عمرى مع أبى وأمى وإخوتى .. فى حى القلعة .. تصور يا ولد يا خالد .. أننى لم أذهب إلى الاسكندرية أبدا .. المكان الوحيد الذى رأيته — بعيدا عن القاهرة ، هو حديقة الحيوانات .. فى رحلة مع بعض زملائى بالجامعة وكانت هناك رحلة أخرى إلى الفيوم .. لكننى فضلت زيارة الأهرامات .. تصور .. إنسان خائب أنا .. حتى خطيبتى « سعاد » ألحت عدة مرات لكى أصحبها إلى المنصورة لنزور بعض أقارب أمها لكننى رفضت .. شيء غريب يا ولد .. عشت حياتى — ٢٨ سنة — وأنا مشدود بخيوط عنكبوت إلى بيت أمى وأبى .. إلى عالمهما المغلق علينا .

و .. صمت متعبا ..

قلت :

ــ جئت من الأقصر متوقعاً كل شيء .. كان الخطر يحيط بى منذ مات أبى مقتولا .. قالوا لى أنه قتل فى أحد سراديب المعابد هناك .. وقالوا إن الثأر له قد تم بذبح عائلة القاتل عن آخرها فى الجبل أو فى المعبد .. لاأدرى لا أذكر .. لقد كنت صبيا صغيراً .. وكبرت مرعوبا بالخوف من السراديب .. يوم ذهبت مع خالى للبحث عن الكنز المجهول .. وفى القاهرة حبست نفسى فى غرفتى بقصر المشتهى .. ورأيت منى فى الطرقة الصغيرة الفاصلة بين مكتبها ومكتبى بمصلحة التطور .. كانت موظفه جديدة .. جاءت بعدى بشهرين اثنين .. سألتنى عن غرفة التصميمات العصرية ، صحبتها إلى غرفتها ، وطلبت لها شايا وجلست معها .. ظنت الموظفات أننى قريبها .. أحببت الحديث معها . . والجلوس بجوارها . . والخروج معها آخر النهار من المصلحة .. اعتدت توصيلها إلى محطة الأتوبيس . . و . . لأول مرة فى حياتى أفرح بميلاد تجربة حب فى حياتى ! ..

قلت لها :

ــ منى .. أنت ماضى .. وحاضرى .. ومستقبلى ..

صاح عاطف :

ــ كلام مجانين ..

قلت :

ــ هى الحقيقة يا جاهل ! ..

سألنى متخابثا :

ــ هذا طبعا باستثناء صديقات العزوبية .. البنات إياهن ؟؟ ..

قلت بارتباك :

– ليتنى عرفت فتاة قبلها .. لقد كذبت عليها مرة وادعيت أن لى تجارب كثيرة ؟ . .

صاح عاطف :

– يا غبى .. يا غبى .. هل هناك رجل يعترف بماضيه لحبيبته ؟ ؟

ضحكت فى ألم شديد :

– ماذا تقول إذن لو عرفت ما قالته الست منى لى ؟ ..

أبدى عاطف اهتماما ملحوظا..مال ناحيتى .. أخرج رأسه كله من تحت الغطاء وسألنى :

– هيه .. ماذا قالت .. إحك لى .. إحك يا ولد ؟

قلت :

– قالت إن لها سبع تجارب ..

ثم سكت فجأة ، وقد أفزعنى التفوه بأسرار منى لأحد .. حتى لو كان عاطف ، الذى أخذ يلح .. ويتساءل ويشجعنى على الكلام فقلت غاضباً :

– وماذا قالت لك خطيبتك سعاد ؟ . .

فقال عاطف بضيق شديد :

– سعاد شىء آخر .. إنها ابنة الجيران وقد عرفت كل ..

ثم سكت فجأة ، ونظر إلى بطرف عينه وقال :

– من فضلك يا خالد .. هذه مسائل شخصية جداً ! .

وغطى رأسه تماما بالبطانية واللحاف وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى..

وساد الغرفة صمت محرج :. أشعلت سيجارتى ، ورحت أتابع دخانها المتصاعد إلى سقف الغرفة المرتفع .. وسرعان ما رسمت سحابات الدخان وجها خمريا : عيونه سوداء ذكية وشفتاه شهيتان .. و.. أخذت أصفر نداء الشوق لها بشفتى :.

لكن فى أسى شديد .. !

: : : : : : : : :

: : : : : : . : .

— ١٩ —

توقفت الطائرة على الممر المرصوف وسط الصحراء .. وتعلقت عيناى ببابها فى قلق :. وأخيرا فتح الباب وهبط على السلم الصدىء عدد من الموظفين حاملين عددا من الصناديق .. هتف عاطف :

ــ الأجهزة ..الأجهزة ! ..

كان شديد الفرح.. ولم أستطع مشاركته هذه الفرحة بوصول الأجهزة اللازمة لأبحاثنا هنا .. كان القلق يزيد من توترى .. كنت أريد أن أرى كل :. كل من بالطائرة فربما .. ربما جئت « منى » وأصرت على الحضور معهم .. ولم لا ؟ .. إنها لابد أن تأتى و ..

هبط مديرنا .. بوقار .. ومن خلفه هبطت ثلاث زميلات هن: سوسن وفريدة ، و.. صحت .. زعقت .. جريت إلى سلم الطائرة .. طرت فوقه :: عانقتها وأنا أهلل ــ منى .. منى .. منى :: وحشتينى يا بنت الـ :.

أسرعت تضع أناملها الرقيقة على شفتى لتسكتنى .. فقبلت الأنامل الرقيقة آلاف القبلات ، ولا أعرف كيف هبطنا إلى الأرض .. كيف سرنا معا .. مع الوفد الأجنبى الذى كان أفراده يتبادلون الابتسامات مع مديرنا الوقور ، ويشيرون إلى أنا ومنى .. و ..

– منى ؟ ! ..

همست بحرج شديد :

– كفى طيشا يا خالد ! ..

نظرت إليها .. كانت شاحبة .. نحيلة .. أكثر مما تركتها .. داعبتها .

– ألم يكن عند أمك طعام يا بنت ..

ابتسم وجهها ، وقالت :

– أبدا .. كنت مريضة جدا ..

اهتز قلبى هلعا .. قلت :

– كيف ولماذا لم تخبرينى .. هه ؟ ..

قالت ، وهى تتعثر فى الرمال ، وتستند بذراعها على ذراعى .

– أخذت حقنة بنسلين .. وعملت لى حساسية و .. لم أخبرك لأن حضرتك كنت هنا ..

سألتها بفزع :

– وكيف .. أقصد لماذا ؟ ..

قالت وهى تبتسم :

– اعطنى فرصة لأرى الصحراء ..

وأخذت تدير عينها فى ربوع الصحراء الواسعة . : الواسعة : : وهى شديدة الاندهاش .. وأخذت أفعل مثلها : . أنظر إلى الصحراء : : وكنت أكثر منها اندهاشا .. كانت الصحراء غير الصحراء : : كانت السماء غير السماء :. كانت الرمال غير الرمال .. كان لكل شىء الآن فى عينى لون ساحر جذاب .. مريح :. مريح .. ورأيت التلال والجبال البعيدة ، وكانت رائعة وسط غابات من الهيش والنخيل : . ورأيت خيام البدو .. وكانت ذات ألوان مشرقة .. حتى الجمال والماعز والأغنام والخيول . : كانت تبتسم الآن ، ووجه الولد عاطف كان طافحا بالسعادة وهو يشرح للوفد الأجنبى وللمدير الوقور ، الإنجازات الضخمة التى قمنا بها فى الصحراء منذ عشرين سنة ، واندهشت لمعلوماته الوفيرة عن جهود من سبقونا إلى هنا من المصريين والأجانب وعن كنوز الصحراء من معادن وبترول و ..

— متى ؟ ..

ضغطت أصابعى بأناملها وقالت :

انظر للرجل الطويل الوسيم فى الوسط .. إنه رئيس الوفد الأمريكى ه

نظرت إليها ، جذبت ذراعها بقوة ، لتنظر إلى عينى ، وسألتها :

— أفندم ؟

ضحكت وقالت :

— يجب أن تتعرف عليه .. إنه لا يصدق أن لدينا كفاءات مدهشة مثلك أنت وعاطف ؟

قلت :

ـــ رأيه لا يهمنى ! ..

قالت :

ـــ والمشروع الجديد ؟ .:

قلت :

ـــ لدينا وقت طويل لنتكلم عنه ؟

قالت :

ـــ أخبرنا المدير أننا يجب أن ننتهى من كل الإجراءات المبدئية فى خلال شهر وقد يسافر بعضنا فى بعثة لاستكمال الـ ..

قلت بضيق :

ـــ متى .. إننى لم أرك منذ ألف عام ؟ ..

ضحكت وقالت :

ـــ كف عن الكذب والمبالغة .. إنها ستة أيام فقط :

نظرت إليها معاتبا .. وأنا أقول :

ـــ الثانية الواحدة أطول من سنة كاملة يا بنت الـ ...

قالت :

ـــ أمى تسلم عليك كثير السلام ؟ ..

خجلت من نفسى لعدم السؤال عنها قلت :

ـــ كان حضورك مفاجأة العمر .. أتعرفين .. لقد رأيت حلما بالأمس .. حلمت بك لكن . .

قالت :

ــ الرجل يشير إليك ؟ ..

نظرت إلى حيث أشارت بأصبعها .، رأيت رئيس الوفد ، الوسيم ، الطويل ، الأنيق ، ينظر إلى ويبتسم وبجواره زميلي عاطف ،ومديرنا الوقور ، يتبادلان الحديث ويشيران إلى ..:

نظرت إلى منى ، ودفعتني باتجاههم ، سرت فى خطوات مرتبكة امتدت لى يد الرجل الأمريكي مصافحة فى اهتمام شديد،وقال بمرح مضحك :

ــ السلام عليكم يا مستر خالد ! ..

ثم أكمل حديثه بالانجليزية .. قائلا :

ــ جهد كبير فعلا ، المستر عاطف أعطانا فكرة ممتازة عن عملكم هنا .. لكننا نود أن نعرف وجهة نظرك الشخصية فى الـ ..

أخذ الرجل يتحدث عن إمكانيات شركته الأمريكية الشهيرة فى أنحاء العالم كله بنجاحاتها الاقتصادية و .. كانت عيناى تتابعان وجه منى أينما ذهبت :: وسط زميلتها سوسن وفريدة .: أو بجوار عاطف ثم بجوار المدير الوقور .: ثم بجوار المستر « جون ميلر » الطويل ، الوسيم ، الأنيق و .. ارتبك عقلى لحظة .. لحظات .. وتلعثم لسانى ، واقتحم دماغى صوت «منى» ذات يوم عندما قالت :

ــ عمرى خمس وعشرون سنة وسبع تجارب ! .:

نظرت إليها .. إلى وجهها .. إلى عينيها .: إلى شفتيها . . إلى جسدها النحيل .. وشعرها الأسود الطويل ، المتناثر الآن حول عنقها وعلى كتفيها وصدرها و..

سألت المستر جون ميللر ، بعصبية لم تخفها ابتسامتي :

– من يسمع معلوماتك الوفيرة هذه عن الثروة الزراعية وتربية المواشي عندنا .: يظنك مولودا في شطانوف ! .

ابتسم الرجل في فرح طفولي باغتني .. وأسرع مديرنا الوقور ،يقول :

– المستر جون ميللر .. اسمه بالكامل جون ميللر متولي عبد الحفيظ !

صحت باندهاش وبدون لياقة :

– والله ؟ ..

ثم تداركت ، وكبحت لساني ، وأضفت :

– يعني من مصر ؟ .:

قال المستر جون ميللر بلباقة :

– جدي متولي عبد الحفيظ أصلا من هنا .: من قرية اسمها .. اسمها.. آه . . اسمها النملة شبرا ..

وضحك .. فضحكنا بمرح شديد .. وقلت :

– قصدك شبرا النملة .. يا أهلا .. يا أهلا ! ..

ومددت يدي . . فمد يده . . وتصافحنا كأولاد البلد . . ورمقني مديرنا الوقور بنظرة تأنيب لاذعة .. فسحبت يدي .. وفركتها بالأخرى .:. وقلت :

– والله وفاء عظيم من المستر جون ميللر لأرض الأجداد ! .:

قال بمرح : سأحكي لكم القصة المثيرة باختصار .. جدي متولي عبد الحفيظ .. هاجر للشام بعد نفي سعد زغلول .. وتزوج من ابنة تاجر

كبير .. هذا التاجر هاجر إلى أمريكا مع أسرته و :: وولد أبي في أمريكا وطبعا ولدت أنا أيضاً هناك و .. هاها .. هاها ! . .

استمرت ضحكاتنا وقتا .. حتى أعلن مديرنا الوقور ، أن المستر جون ميللر ، يحب أن يستريح قليلا من عناء السفر الطويل ، ثم نواصل الحديث معه حول المشروع الجديد :: و :: هز الضيف رأسه موافقا ، ثم داعب شعر « منى » بـ بمودة شديدة ، وتبادل معها ابتسامة ، و .. نظر إلى وقال :

ـ لنا لقاءات وأحاديث :: وربما جئت أنت ومنى وغير كما إلى أمريكا لدراسة المشروع معنا هناك و ::

. . . . : : : :

. . . . : : : :

— ٢٠ —

أخيراً ، وجدت نفسي مع « منى » في شرفة الاستراحة ، فأخذتها بين ذراعي ، وهمست :

ـ منى :: منذ أسبوعين وأنا أصفر وحدي ! : :

ضحكت ، وأراحت رأسها على صدري .. وقالت :

ـ وأنا أيضاً .. ألم يصلك صفيري يا خالد ؟؟ . .

ضحكت وقلت :

ـ المسافة طويلة ! ..

سألتني فجأة :

— قرأت الرسائل ؟ . :

لسعنى سؤالها ، أثار كل جراحى ، ذكرنى بالكابوس السخيف الذى أفزعنى .. ذكرنى برغبتى فى صفعها :: فى تمزيق وجهها وشعرها و :: أخذت نفساً عميقا ، ونظرت إلى الصحراء الواسعة المخيفة : ورأيت كل شىء كما اعتدت رؤيته قاتما .. موحشا . أعادت سؤالها :

— قرأت الرسائل يا خالد ؟؟ . :

حاولت أن أكون عاقلا ، قلت باقتضاب :

— دعينا من الماضى يا منى .. إننا هنا على مشارف أحلام جديدة و : :

قاطعتنى بعناد غريب :

— كيف نهرب من الماضى ؟ ::

قلت بضيق :

— لأنه مضى وانتهى ! ::

قالت :

— خطأ . . أنا .. وأنت :: وكل إنسان :: لا يستطيع الهرب من ماضيه أبدا ؟ ! ::

نظرت إليها .. وتشبثت بمحاولة أخيرة للعقل :

— إننا أبناء الحاضر يا منى ؟ . :

قالت :

— حاضرنا هو ابن شرعى لماضينا :: لماذا تراوغ فى هذه الحقيقة ؟

انفلتت أعصابى ، قلت أعنفها :

ـ بالتأكيد أنت إنسانة مجنونة ! ::

صاحت باندهاش وألم :

سأكون مجنونة ، إذا أخفيت عنك أى شىء من الماضى :: فلماذا لا تفهمنى يا خالد ؟ !

قلت بألم شديد :

ـ يبدو أنك تريدين التخلص من حبنا :: ولك حريتك !

نظرت إلى بتوتر شديد ، بدا واضحاً فى تقلص شفتيها وازدياد شحوب وجهها ، وارتعاش أصابعها ، وعضت بأسنانها ، ثم قالت بألم شديد :

ـ قلت لأمى .. أننا سنعقد قراننا هنا :: ونتزوج فى الصحراء :: ونقضى عمرنا هنا نزرع أحلامنا و :: وعدتها بأن ندبر لها وسيلة للحضور و..

بكت منى .. فازداد عذابى ، سألتها : وأصابعى تربت على كتفيها برجاء شديد :

ـ لماذا إذن إصرارك على تعذيبى :: وتعذيب نفسك ؟! ::

قالت :

ـ أنت لن تتزوج إنسانة مجردة من كل شىء اسمها « منى » :: إنك ستتزوج معى كل أيامى :: أحلامى :: ذكرياتى :: وكمية الهواء التى دخلت جسدى .. والامطار التى بللتنى منذ ولدت للآن ، وكميات البرودة والدفء ، والدموع ، :: والأمراض :: والأفراح و :: كل شىء :: كل شىء سيكون معى بين ذراعيك :: سيكون لصيقا بأنفاسى ويختلط بأنفاسك:: هل هذه معضلة صعبة :: إنها بديهية نعيشها جميعاً ! ::

قلت :

– لكن كل الناس و ..

قاطعتنى :

– إننى مسئولة عن حياتى وعن كيف عشتها وكيف سأعيش الباقى منها ! ..

فصحبتها فى صمت ، إلى الجانب الآخر من الاستراحة ، حيث كانت سوسن ، وفريدة ، فى انتظارها .. وقبل أن أنصرف ، مهموما ، سألتنى إحداهما .. بمرح :

– متى نرقص ونغنى ونشرب الشربات ؟؟ ..

نكست رأسى ، وأسرعت خارجا من الاستراحة كلها .. أخذت أسير فى الصحراء ، غير مهتم بالامطار التى هطلت فجأة .. وبغزارة ! ..

. . . .

. . . .

– ٢١ –

امتزج المشهد الصحراوى القاتم الممطر ، بذكرى اللقاء الأول .. إننى الآن أتعثر فى الرمل ، المبلل بالسيول ، ومنذ شهرين كنت معها ، فرحا .. هبطت معها من مصلحة التطور .. تركنا الأسانسير لزملاء وزميلات .. وهبطنا درجات السلم معا .. من الدور العشرين .. كنا وحدنا .. كان صوت أقدامنا له وقع مضطرب على بلاط السلم .. وضعت

يدى على كتفها :: داعبت أصابعى عنقها :: خدها :: أذنها :: نظرت إلى فقبلتها فى شفتيها فى ارتباك :. كانت هذه أول قبلة بيننا قالت :

– يا نذل ؟! ..

اضطربت ، تجهمت :: سرت صامتا :: قلت لها بعد أن تجاوزنا الدور العاشر :

– أردت أن أقبلك ففعلت :: أى نذالة فى هذا ؟! ::

ضحكت بصوت طفولى ، وقالت :

– لا أقصد أنك نذل :: نذل :: أبدا :: هذه طريقتى فى الكلام مع من أحبه ! ..

ادعيت الفهم ، وواصلنا الهبوط :: فى الدور السادس بدأ يصلنا صوت حركة الشارع بوضوح إلى حد ما :: أسندت نفسها على صدرى وقالت :

– تعبت من الهبوط ! :

قلت :

– نجلس قليلا ! ::

وجلسنا على (بسطة) السلم :: ونظرنا إلى بعضنا وضحكنا وتبادلنا قبلة أطول .. وسمعت همسها لأول مرة :

– أنت إنسان ذرى جدا ! ::

نظرت إليها ، فى محاولة لفهم قاموسها اللغوى الخاص بها ×

قالت :

– اقتحمتنى بسرعة البرق ! :.

قلت : لك جاذبية طاغية ! ::

قالت :

– تعارفنا منذ يومين فقط :: سألتك عن مكتبى :: وشربنا شايا و:: اليوم تقبلنى :: رقم قياسى فى الحب ؟! ::

ضحكت فرحا ، وضغطت ذراعها بيدى فتأوهت بصوت محبب هامس و :: قلت لها :

– المسألة أننى حلمت بك من ثلاثين سنة ! ::

قالت بمرح :

– ياه :: أنت من زمان اقوى :: عجوز ؟ ..

وضحكنا ونهضنا نواصل الهبوط :: وصلنا إلى الشارع ، لفنا الضجيج والصخب ، لكننا لم نسمعه .. كنا مشغولين بحبنا .. تعانقت أيدينا .. وسألتها :

– إلى أين ؟! ::

قالت :

– إلى البيت فورا ! ::

قلت :

ــ ما رأيك .. نشرب شايا فى أى محل :: فى أى مكان :: أريد أن أتحدث معك قليلا .

قالت :

ــ وأنا أيضا ! ::

وصلنا شارع فؤاد :: ومنه إلى شارع سليمان :: وفى أحد المحلات دخلنا .. وطلبنا شايا ..

قالت بسعادة :

ــ هذا الركن بالذات :: جلست فيه كثيرا ! ::

نظرت إليها باندهاش :: سألتها :

ــ لك ذكريات :: هنا ؟! ::

هزت رأسها ، وقالت :

ــ الانسان منا ما هو إلا مجموعة من الذكريات ؟ ::

تجهمت رغما عنى :: إننى لم أفهمها بعد :: لها طريقة مختلفة فى الكلام :: إنها من النوع الصريح جدا :: لكن ::

جاء العامل بالشاى ، فطلبت فنجانا من القهوة :: ذهب لاحضاره :: داعبتنى :

ــ أقرأ لك الفنجان ؟ ::

وبالفعل ، جعلتنى أحتسى القهوة بسرعة ، حتى إلتهب حلقى ::

وقلبت الفنجان فوق الطبق ، ولمست أصابعى ، وضحكت .. تلاقت عيوننا فى نظرة طويلة .. فردت كفها اليمنى ، ثم كفها اليسرى .. وقلت لها :

– أقرأ لك الكف ! ..

قالت : ياريت ! ..

نظرت إلى خطوط راحتها ، أطلقت صفيرا مندهشا ، وقلت :

– ياه .. أمامك سكة سفر ؟ ..

ضحكت .. وقالت :

– فنجانك يقول هذا أيضاً ! ..

كانت لم تقلب الفنجان بعد .. لكنها أضافت :

– وبعد نقطتين يصلك مبلغ من المال ! ..

وضحكنا ، وتمنينا أن تدخل ضاربة الودع إلى المحل ، لكى تكتمل لنا اللعبة .. فاجأتنى بقولها :

– هيه .. وماذا تقول خطوط يدى أيضاً ؟! ..

أعدت النظر فى راحتها بتدقيق ، كمن يفك طلاسم فلكية غامضة ثم صحت :

– يا خبر .. لديك رغبات جنسية مكبوتة يا بنت ! ..

ضحكت بصوت مرتفع لفت إلينا أنظار الجالسين ، ثم قالت :

– أنت قليل الأدب ؟! ..

قلت لها :

– وأنت بنت قرود ! ..

و .. ذابت كل المجاملات بيننا .. تلاشت تماما حساسية مثل هذه اللقاءات عادة بين أى حبيبين جديدين .. سألتها وأنا أوصلها إلى محطة الاتوبيس :

– متى أراك ؟! ..

قالت :

– كل يوم .. فى مصلحة التطور ! ..

قلت :

– لماذا لا تزورينى فى مسكنى ؟؟ ..

سألتنى :

– لماذا ؟؟

نظرت إليها ، وهمست فى أذنها :

– لكى نلعب معا ! ..

احمر وجهها ، ازداد احمرارا ،وشفتاى تلمسان عنقها مدعيا أننى أسوى لها ياقة البلوزة وشعرها .. وقالت :

– أنت وقح جدا ! ..

قلت :

– ما رأيك .. نسافر إلى الاسكندرية .. أود أن أراها قبل أن أموت ؟! ..

عادت إليها ابتسامتها ، وقالت :

ـ سواء كنا هنا .: أو فى الاسكندرية .: فلن تطول منى شيئاً .:

ادعيت الاندهاش .: سألتها :

ـ لماذا .: لا أفهم ؟ .:

قالت :

ـ الحب لا يتجزأ .. مثل كل شىء فى حياتنا .:

قلت :

ـ أنا على استعداد أن أقف على محطة الأتوبيس وأعلن على الملأ بملء صوتى .. إننى غبى لا أفهمك ! ..

ضحكت وقالت :

ـ من أين جئت لى .. أيها الهمجى ؟! .:

قلت :

ـ اتفقنا . . سنوقع غدا بالاحرف الأولى على مواثيق حبنا . . سأقيم حفلا متواضعا فى مسكنى بسطوح قصر المشتهى و . .

جاء أتوبيسها ، فصافحتنى وقالت :

ـ لو تكف عن الخيال لحظة ؟ ..

ثم انطلقت إلى الاتوبيس ملوحة بيدها فى مودة ومرح .. و ..

سألنى صوت وقور .. ودود .. لا يخفى لهفته :

ـ خالد افندى .. ماذا أصابك يا ولدى ؟؟

فتحت عينى بصعوبة ، فرأيت الحاج جميل السهار ، بثيابه البدوية المبللة بالمطر ، فتنفست بحزن .. وقلت :

— لا شيء .. لا شيء ! ..

فصاح :

— لماذا تعرض نفسك لهذه الأمطار الشديدة .. ألا تخاف على صحتك يا ولدى ؟ ..

لم أقو على الرد .. أو .. ربما رددت بغمغمات تاهت منى ومنه فى العواصف التى هبت من كل جانب ، وأطارت الرمال المبللة .. وبعثرت أزهار الحشائش البرية حولنا .. وضع يده الحانية الخشنة على جبهتى .. على عنقى .. على صدغى .. على يدى ثم صاح :

— حالتك خطر يا ولدى ! ..

وأنهضنى ، وسندنى بذراعه القوية ، سرت بضع خطوات ثم سقطت .. وشعرت برعشة شديدة فى جسدى كله و ..

وأدركت لأول مرة أننى مبلل تماما بالأمطار .. صفعتنى الرياح الهائجة بالاف الرمال فى وجهى و ..

. . . .

. . . .

« . . يا أجمل كل الناس . . كم أود أن أشاركك بيتك ، زوجة لك . . كي تضع ذراعك على ذراعي .. ولكنك أدرت عني عقلك ! »

تلفت حولي . . كان الصوت . . صوتها .. كانت تدندن باسمي . . رأيتها جالسة على حافة الفراش ، بالقرب من وجهي .. لمست أصابع يدها . . نظرت إلي .. ابتسم وجهها الشاحب ، داعبتني بأصابعها في أنفي .. وقالت بصوت تخنقه الدموع :

– يا عيل ! . .

وضحكت ، فلمعت أسنانها البيضاء ، وازدادت شفتاها جاذبية ، و . . أقبل عاطف ، صاخبا :

– لنفرض أنك مت منا هنا .. ماذا كنا سنفعل بدونك ؟ ..

وداعبني ساخرا ، مؤنبا :

– لو رأيت الحاج جميل السهار وهو يحملك على كتفه .. لضحكت حتى جننت .. دخل علينا الرجل مذعورا ، وحضرتك « كالشحط » ممدا على كتفه .. قلنا مات والحمد لله ؟ . .

نظرت اليه مني ، متغاضبة ، وقالت لي :

– ولقد بكى عاطف من أجلك .. إنه يحبك . .

وضغطت بيدي على يد عاطف ممتنا ، ونهضت قائلا :

– آسف جدا للازعاج . . الامطار هنا رذلة . . والعواصف أرذل . . المهم . . ماذا فعلتم ؟؟

قال عاطف :

– لا شيء . . أعطاك الطبيب حقنة و . .

قلت :

– والوفد . . ومديرنا الموقر . : والمشروع ؟ !

قال عاطف :

– هل تظن يا ولد أن الدنيا ستخرب بموت واحد « خيخة » مثلك ؟

هززت رأسي ضاحكا . . وقلت :

– طبعا لا . .

ونهضت ، فآلمتني مفاصلي ، وقلت لمنى :

– ساعديني . . إذا سمحت . . لأغير ملابسي . . لابد أن أذهب إليهم . .

هرول عاطف خارجا ، وهو يقول عند الباب :

– آه لو رأيت الأجهزة الجديدة يا ولد . . لا تتأخر لنبدأ العمل !

سألتني منى :

– لماذا فعلت هذا ؟ ؟ . .

قلت :

– أبدا . . كنت أتمشى قليلا . . وفاجأتني الأمطار والعواصف .

هزت رأسها ، وقالت :

– تستطيع أن تنسى كل شيء . . فصحتك والعمل هنا أهم من وجودي ذاته . . آسفة ؟ . .

استدرت اليها ، وأخذت وجهها بين راحتي ، نظرت طويلا إلى عينيها . .

قلت :

ـ يجب أن نتزوج فورا . :

قالت :

ـ لا تكن عاطفيا . :

هززت رأسها براحتى ، بعنف شديد ، وقلت :

ـ ماذا تريدين منى . . بالتحديد . : ماذا تريدين ؟ ! . .

قالت :

ـ لقد أحببتك . . ولكن هذا لا يكفى . . فالحب لا يبرر الزواج أبدا ؟ ! . :

صحت فيها :

ـ أنت تغالطين .. ومصابة بضعف شديد فى الذاكرة أيضا .

نظرت إلى ، ثم اتجهت إلى النافذة ، ووقفت تحدق فى الصحراء .. وفى مجموعة العمال الذين يقيمون عددا من العنابر الخشبية ، باشراف المدير وعدد من أعضاء الوفد الأجنبى .. اقتربت منها بخطوات متوترة .. كنت أحس بالتوتر يلهب مفاصلى .. يحرك لسانى بعنف ، فسألتها :

ـ لماذا هجرت تجاربك السبع .. السابقة ؟! ..

نظرت إلى .. حدقت فى عينى بضيق شديد .. ثم سألتنى :

ـ قرأت رسائلهم ؟ ! ..

ترددت .. ثم قلت :

ـ واحدة فقط ؟ ..

قالت :

– ما زلنا فى حاجة إلى وقت طويل .. وربما يغير أحدنا رأيه ؟! أشعلت سيجارتى ، وأخذت أنظر إلى عنابر الخشب وهى تقام خارج الاستراحة .. وبعض العمال يغنون بمرح .. و .. قلت :

– تبحثين بجنون شديد عن .. عذابنا .. ترغبين فى ابعادى عن طريقك .. تصرين على أن يكون لك تجربة ثامنة .. مجرد تجربة مثل تجاربك السابقة ..

دمعت عيناها .. وقالت :

– أنت لا تفهم .. لا تفهم ! ..

وخنقتها دموعها ، لحظات ، ثم أضافت :

– الانسان لا يبدأ حياته مرتين أبدا .. انها حياة واحدة نختارها ونعيشها .. فلماذا لا نختار بعناية .. ونناقش كل شىء .. لكى نعيش كما يجب ؟! ..

قلت فى محاولة يائسة : زواجنا سيحل كل مشاكلنا ! ..

قالت :

– زواجنا سيظل مهددا بالماضى .. إذا تركناه دون مناقشة .

قلت ، والشك ينمو بشراهة فى صوتى :

– هل ماضيك مخيف إلى هذا الحد ؟! ..

قالت :

– هذا يتوقف على عقلك وحده ..

صحت :

– عقل .. عقل .. هل أنت العاقلة الوحيدة فى هذا الكون .. همت بالكلام ، فتابعت صياحى :

– اصمتى .. وافهمى كلامى جيدا .. إنك مصابة بلوثة اسمها العقل ..وتدمرين أحلامى كلها بهذا الوباء العجيب ..

قالت بعصبية : لا أذكر من هو الذى قال ان العقل نسيج الوجود . . وجوهر التاريخ ومضمون الوقائع . . واعرف أن . .

قاطعتها :

– العقل نفسه فى حاجة إلى شيء من العقل يتحكم فيه . . والا حطمنا أنفسنا بحجة العقل والتعقل . . ثم إننى لا أحب أبدا أن أبنى عواطفى على تقارير واردة من العقل ! . .

قالت :

– تجيد اللعب بالألفاظ . . وهذا – للأسف الشديد – يضرنا أكثر مما يفيدنا ! . .

واجهتها غاضبا :

– يجب أن نكف عن هذا الكلام الفارغ فورا والا هشمت رأسك . . ومزقت جسدك . . و . .

أسرعت خارجا من الغرفة ، فانخبطت فى عاطف الذى صاح مهللا :

– أين أنت ياولد . . الاجهزة الجديدة تناديك . . هيا لنبدأ أبحاثنا عن التربة وعينات الصخور والمعادن و . .

لاحظ اضطرابى ، فأخذنى إلى الغرفة المجاورة وأشار إلى الأجهزة التى ملأت المنضدة الكبيرة ، وإلى سوسن وفريدة وهما تعملان باهتمام شديد ، وقال :

– مع احترامى لك وللأخت منى . : وراءنا هنا عمل شاق وهناك مشروع ضخم ينتظر نتيجة أبحاثنا هذه . . و . .

صمت عاطف ، وانشغل فى أبحاثه ، وفجأة فرقع لسان سوسن بسؤال :

– هل تستطيع تحديد جودة الأرض هنا . . دون أن نتأكد أولا من عمقها . . ؟ ! . .

قال عاطف :

– عندك ، فى هذه الاكياس البلاستيك ، عينات من جوف الأرض !

قالت فريدة :

– انها عينات كاذبة : . خادعة . : يجب احضار عينات من عمق أكبر وأبعد . . من أحشاء الصحراء . . إذا أردنا النجاح لعملنا ؟!

. . . .

. . . .

علقت منى ، وهى ترتدى البالطو الأبيض :

– هذا صحيح : . فأعماق الصحراء هى ماضيها ، ولن تبوح لنا بكنوزها الدفينة إلا إذا بحثنا هذا الماضى ، وفهمناه ! : .

ألصقت عينى بمنظار الجهاز المكبر : : و : : هربت من نظرات زملائى و . . .

. . . .

. . . .

قال المستر جون ميللر بوضوح شديد :

ــ قد يكون اسمي جون ميللر متولى عبد الحفيظ :. وقد يكون لاجدادى جذور هنا :. وربما كان لى أقارب يعيشون فى شبرا النملة .. ولكن يجب أن أقول لكم أننى هنا بوصفى أمريكيا أولا وأخيراً .. أبى ولد فى كاليفورنيا.:. وتعلمت أنا فى هارفارد :. ونيوجرسى .. و كذلك شركائى فى الشركة.:. كلهم أمريكان :.

وصمت لحظة :. فنظرنا إليه ، فى انتظار بقية حديثه ، دون أن نحاول التخمين ، إذ أنه كان واضحا تماما لنا .: إنه أمريكى .. حسنا .: وماذا بعد؟؟.:. لم أسأله هذا السؤال :. كذلك لم يسأله أحد من زملائى وزميلاتى .. وغمغم مديرنا الوقور ببضع كلمات غير مفهومة .: وعبث بأوراق الدوسيهات أمامه.:. وشملنا بنظرة سريعة حيث اجتمعنا فى غرفة المكتب بالاستراحة .: وعاد مستر جون يكمل حديثه :

ــ لكى أكون واضحا مع نفسى ومعكم .: شركتنا لديها إمكانيات ضخمة ، وشركائى يسعون من أجل مزيد من الربح :. وهكذا يجب أن تكون المنفعة المتبادلة هى مبدؤنا الواضح هنا ..

قال مديرنا بوقاره المعتاد :

ــ لدينا قوانين واضحة .: وحقوق جميع الأطراف مكفولة :. وهذا ما تحدثنا فيه بالقاهرة قبل المجىء إلى هنا ..

قال مستر جون :

أعتقد أن زملائى لن يعارضوا كثيراً فى الأمر .. لكن المزرعة الصناعية التى سنقيمها هنا تحتاج إلى دعم تكنولوجى هام .. ولذلك أرى أن نبحث أيضا مشاريع جديدة تلزمنا فى منخفض القطارة .. أننى إبغى التكامل فى المشروع .. فالأمر لن يكون مجرد زراعات وحيوانات نصنعها ونعلبها .. الأمر سيكون أبعد من ذلك .. وأكبر .. ؟؟

وحيث إننى كنت أرى أن الأمر يحتاج إلى مناقشات سياسية بالدرجة الأولى .. فقد نهضت عائدا إلى غرفة المعمل المؤقت لأواصل تجاربى على عينات من جوف الصحراء ..

وجاء عاطف بعد دقائق ، واستقر خلف جهازه ، وانهمك فى تجاربه ، و .. أخيراً قال بضيق :

– ماذا يريد هذا الرجل منا ؟ ! ..

قلت :

– لا أحب الكلام فى السياسة ؟؟ ..

علق ضاحكا :

– يا جبان ! ..

وأقبلت منى ، فى البالطو الأبيض ، الذى يكشف عن صدرها العذرى النافر .. وساقيها الجميلتين و .. سألتنى بمودة :

– هل وصلت إلى شىء ؟ ! ..

قلت ساخرا :

– ماضى صحرائنا عجيب ! ..

ضحكت وقالت :

– المهم أن نفهمه ! ..

فجأة سألها عاطف ، وعينه على مقدمة منظار الجهاز :

– ماذا يقصد الأمريكى ؟ ! ..

قالت منى :

– إنه واضح تماما .. مصلحته أولا .. وعلينا أن نكون بمثل وضوحه .. وأن نضع مصلحتنا فوق مصلحته ..

سأل عاطف :

– هل نستطيع ؟ ! ..

قالت منى :

– ولم لا ؟ .. أرضنا .. وأحلامنا .. وعقولنا .. وبيدنا ألا نفرط فى شىء ..

– قد ينسحب ؟؟

قالت :

– لن نخسر شيئا .. إذا نظرنا للمسألة فى حجمها الحقيقى .. وهو أن ماينقصنا فقط هو الأجهزة التكنولوجية الحديثة جداً .. والأموال .. وشىء من الجدية والانضباط ! ..

قلت :

– دعونا من كل هذا .. ولنهتم فقط بعملنا ! ..

قالت منى :

ـ لا تغالط يا خالد .. إننا نعمل هنا من أجل هذا المشروع بالذات .. وهذا الأمريكى يريد المناورة ، ليضمن أكبر قدر من الأرباح .. شأن أى رجال أعمال ! ..

صحت بضيق شديد :

ـ عملنا هنا هو إجراء التجارب على التربة فقط .. إذا كنتم قد نسيتم ! ..

قالت :

ـ أنت إنسان سلبى ..

صحت بعصبية :

ـ منى ؟ ..

قال عاطف ممازحا :

ـ دعها يا رجل تقول لك رأيها بصراحة قبل أن تكممها بالزواج !

قلت له بضيق أشد :

ـ من فضلك .. هذه شئون خصوصية ! ..

و .. ازدادت نظرات منى اتساعا ، كانت مندهشة لانفعالى .. لكن عاطف واصل ضحكاته ، وقال :

ـ دعيه يا منى .. إنه لن يحد عنى أبداً ! ..

ثم أضاف :

ـ آه يا بنتى لو رأتيه قبل حضورك .. كان يحلم ليل نهار .. كالمخبول ! ..

وازداد ضيقي ، فلذت بالصمت ، بينما قالت مني :

ــ وهكذا كنت أفعل في القاهرة .. لدرجة أن أمي ظنت أنني مريضة .. وصنعت لي حجابا ..

وكشفت عن صدرها المثير ، حيث يتدلى الحجاب بجوار « السوتيان » فنظرت إليها وإلى عاطف ، الذي غض من بصره فوراً .. وتشاغل بتجربته ، وأخيراً أخذ يغمغم بحكايته مع خطيبته :

ــ كانت سعاد تطلق البخور في غرفتي كلما تشاجرت معها ..

سألته مني :

ــ تغار عليها ياعاطف ؟ ! ..

قال بصوت حالم :

ــ من الهواء الطائر !

. . . .

. . . .

ــ ٢٤ ــ

كانت الأمطار تبلل ثيابي ووجهي .. والرمال .. والحشائش والأزهار البرية .. وفرو الأغنام وجلود الجمال والخيول والخيام ووجه البنت فضيلة التي كانت تلعب الحجلة مع أطفال البدو .. وكانت أمها ، تنظر إلى بعينها الخضراوين من خلف « البرقع » المزدان بالترتر والقصب .. واصلت سيري ببطء في اتجاه أحد الكهوف البعيدة ..

كنت شديد التعب من نفسى ومن «منى» .. كنت أريد أن أصل إلى حل معها .. وكنت أرفع وجهى للسماء لتبلله الأمطار الخفيفة .. علها تنعشنى .. وتجعلنى أتبين طريقى و ..

عند الكهف البعيد ، جلست أتأمل نقوشا فرعونية قديمة على حجر ضخم يبلله المطر .. كانت الحروف فى شكل طيور وحيوانات ونباتات .. عجزت عن حل ألغازها ، فأخذت أحرك أصبعى فوق الحروف والنقوش.. واستوقفنى نقش بارز لجسد فتاة رائعة برشاقة ورأسها مرفوع بكبرياء ، وشفتاها تبتسمان بعشق ، وعيناها ترنوان فى محبة إلى فارس مصرى مشدود العضلات ، حاملا سهامه ورمحه وعيناه كالصقر فى اتجاه الافق و ..

من بعيد .. كانت منى قادمة .. كانت تسير فى اتجاهى ببطء .. ظللت أرقبها .. حتى اقتربت .. لاحظت أنها تضع قدميها على نفس مواضع قدمى فى الرمال .. وأخيرا أسرعت إلى مهللة مرحة وارتمت فوقى صائحة :

ــ خالد ؟!

وتبادلنا مئات القبلات ، وزحفنا خلف الحجر الفرعونى الضخم القديم الذى تسيل الامطار فوق نقوشه و .. بللت الامطار وجهينا .. رأسينا .. صدرينا .. وأقدامنا العارية المرتعشة بالنشوة فوق الرمال التى تمتص كميات المطر دون ملل .. دون توقف .. دون كلام .. وعاودنا التلاقى فى عطش زائد .. ومن جوف الصحراء .. ومن أطرافها ومن قلب الكهف القديم المهجور .. ومن أعماق الأرض ، ومن بين السحب والامطار جاءنا صوت عذب ساحر أليف يغنى :

– « تسعد قلبي .. فافعل بي ما تريد .. حينما أكون بين ذراعيك .:
حبيبي .: دواء عيني .. رؤياك نور عيني .. استكن بجوارك هادئة .:
لأنى أرى حبك .. يا من تسكن قلبي .: يا أعظم الرجال .. يا حبيبي ؟» .:

و .. فوق الجانب المواجه لنا من الصخرة الفرعونية الضخمة .. رأيت مع منى ، لوحة منقوشة بمهارة لفتاة ممشوقة القوام ، عارية تماما .: يغطى شعرها جانبا من صدرها ، وبجوارها ، لصيقا بها .: فتاها الوسيم يقف معها ، وفى أيديهما قلب واحد .. تضمه أصابعهما معا وترفعانه فى اتجاه أشعة الشمس .. وأمامهما اناء فخارى فوق منضدة أنيقة وعدة نقوش غامضة .. و .. تبادلنا النظر .. ارتديت قميصى ، وألبستها بلوزتها و .. حملنا أحذيتنا فى أيدينا .. وسرنا فوق الرمال .. بأقدامنا العارية .. وكان لملمس الرمال المبللة بالمطر طعم خشن يدغدغ أقدامنا .: فضحكنا وجرينا ، وحول رأسينا تزايد هطول الامطار .. وهبت الرياح خفيفة وشديدة .. فتطايرت الازهار البرية حول وجهنا و .: صهل جواد أصيل أمام خيمة صاحبه البدوى .. وأثغت الشاة .: وصاحت أم فضيلة ، ذات العيون الخضراء تنادى ابنتها فضيلة ، تمنينا أن نمتطى جوادا ننطلق به فى أرجاء الصحراء الواسعة .. لكن الامطار ازداد هطولها ، واشتدت الرياح و .. بعثرت ضحكاتنا فعدنا جريا إلى الكهف القديم ، وتبادلنا الهمس والحب و ..

سألتها :

– من منهم أحبك أكثر يا منى ؟! ..

قالت دون أسى :

— المفروض أنهم السبعة أحبونى جداً .. كما قالوا لى ؟! ..

قلت ، والشك فيها يؤلمنى ويسيطر على عقلى :

— وأنت ؟؟ .. أيهما أحببته أكثر .. ؟؟

قالت :

— أنت ؟! ..

ضحكت ، وقلت ، محاولا التغلب على عذاب الشك :

— إذا أردنا أن نصل شاطىء النجاة فلا داعى للمجاملة ؟ ..

قالت ، وهى تقبلنى :

— هناك أغنية فرعونية ، تلخص ما أريد أن أقوله ..

ثم .. أخذت تغنى بصوتها العادى .. العذب .. الساحر .. الأليف .. لا كما تغنى المطربات ، وإنما كما تغنى العاشقة فى أحد المعابد ، أو على حافة بحيرة فى غابة ساحرة :

— «كنت أقف عند باب دارى أنظر .. وأنتظر» ..

— وأسأل ..

— أيأتى حبيبى إلى ؟؟ ..

— عيناى على الطريق ..

— وأذناى تسمعان ..

— حب حبيبى لى ..

— هو همى الوحيد ..

– وقلبي قلق عليه ..

– ها هو ذا ..

– يبعث لى رسولا ..

– يجيء ويمضى مهرولا ..

– ليقول ..

– « أصابنى مكروه ؟ .. »

– لكننى .. أقول له :

– « قل أنك وجدت حبيبة أخرى ! .. »

– وكنت أبكى ..

– فأنا أحبه ..

– لكن ..

– كنت أسأل نفسى ..

– « لماذا أجعل قلب امرأة أخرى يتألم ؟ »

– لكن .. هل أموت أنا ..

– ويسترجع قلبى حبه .. حبهم ؟ ..

و .. كانت عينا منى تدمعان بغزارة .. كانت دموعها تبلل صدرى وكتفى وأصابعى .. وأخذتها بين ذراعى .. ضممتها بعنف .. برقة .. بشوق .. بخوف .. بضيق .. بحب .. وهمست فى أذنى :

– كانت جدتى تقول لحبيبها .. أمنحك الليلة حبى ! ..

قلت ، وعدم الثقة ينهش أحلامى :

– وكانت تذهب إلى البحيرة لتستحم وتتركه يملأ ناظريه بجمالها
ضحكت .. وقالت :

– يا جاهل .. كانت تقول له ..

– أنا حبيبتك الأولى ..

– حديقتك ..

– فازرع فيها الزهور ..

– والنباتات ذات العبير ..

– واملأ جدولها ..

– وخذنى إليك ..

– و ..

همست ، وجسدى كله محموم بالرغبة فى حسم كل الأحلام ولو بتدميرها :

– قلت لى أن الحب لا يتجزأ ؟ ..

قالت :

– أنا كلى لك .. الآن لك وحدك ..

همست فى ألم :

– عذبتنى بدعاباتك السخيفة طوال شهرين ! ..

قالت :

– على يديك .. جسدى يستريح .. وقلبى منتش .. و ..

تفجرت عذريتها ، وامتزجت بكميات العرق المنثالة فوق جسدينا

و .. أخذت تلعق البلل بلسانها وشفتيها و .. عدنا نتداخل .. نتقلب على الرمال ، فى جوف الكهف القديم ، وصفير الرياح فى باب الكهف لا يفزعنا .. وتصادم الامطار بالأحجار لا يهمنا .. كانت أمطارنا أشد غزارة ..

و ..

أسندت ظهرى إلى كتفها ، وأشعلت سيجارتى .. فطلبت سيجارة فأشعلتها لها .. وأخيرا قالت :

– سأسافر غدا ..

فزعت .. استدرت إليها :

– لماذا ؟؟ .. إننا سنتزوج الليلة .. ونبدأ حياتنا من البداية .. سنكون مثل آدم وحواء .. نقطن هذا الكهف ، ونخرج كل صباح لنعمل فى المزرعة الصناعية ، وننجب أطفالا لهم طباع هذه الجبال والصحراء و ..

أخذت ترتدى ملابسها ببطء والسيجارة حائرة بين أناملها .. وشفتيها ، وعيناها تدمعان و .. أخذت السيجارة منها ودفنتها فى الرمال .. وهممت بجذبها إلى أحضانى ، لكنها رفضت وفاجأتنى بسؤال :

– هل رأيت كيف أن ماضى مخيف ؟؟ ..

و ؟؟

سألتها :

– منى ؟ .. ماذا تقولين ؟؟ ..

قالت ، والدموع فى عينيها : أنت تشك فى .. وهذه إهانة لا أستحقها منك ..

صحت أقاطعها :

ــ كفى عن جنونك .. ودعينا نفعل شيئا لأنفسنا ..

قالت :

أخاف منك ؟ .. ستدمر أحلامى بظنونك ..

قلت :

ــ أنت .. كنت مصممة على أن تصدميني بماضيك وتجاربك السبع .. أنت الـ ..

قالت :

ــ لأننى عرفت معك أملا جديدا فى الحب .. وأردت أن أولد من جديد على يديك أنت .. بعد أن أتخلص من كل الماضى ؟ ..

قلت :

ــ هذا ما يجب أن نفعله الآن .. فورا ..

ضحكت بأسى وقالت :

ــ لابد أن أفكر . . لابد أن أعطى لنفسى مهلة معقولة لكى ..

صحت بها :

ــ كفى عن هذا الهذر .. فأنا لم أكن أعرف أنك عذراء ؟؟

قالت بسخرية قاتلة تطل من عينيها الغاضبتين :

– عذريتى الحقيقية فى عقلى .: وليست فى جسدى . . فكف عن تخلفك ولو لحظة لكى تستفيد من عقلك إذا كان لك عقل ! :.

قلت : إما أنك مجنونة .: وإما أننى غبى أو حمار ! ..

ضحكت وقالت بمرارة :

– لا تظلمنى .: ولاتظلم نفسك .: واعتبر المسألة كلها مجرد تجربة.: مثل وصولنا إلى أحشاء الصحراء .. وفك رموز أعماقها ، وماضيها .. لعلنا نفهم حاضرنا ومستقبلنا ..

سألتها : إلى أين يذهب بك عقلك .. يا منى ؟؟ إلى أين ؟؟ ..

قالت : إلى بعيد .: بعيد .: إنه لا يهدأ لحظة .: دائماً يريد المزيد والجديد ؟ .:

ولفنا الصمت ونحن نسير فوق الرمال المبللة ، وأحذيتنا فى أيدينا .: وعندما وصلنا إلى بداية المشروع الجديد ، توقفت .. فتوقفت بجوارها وأخذت نفساً عميقاً من هواء الليل البارد على أفيق ، وحاولت أن أحطم صمتها .. سألتها :

– لماذا تظنين أننى أهنتك ؟! :.

.:كانت شاردة ، تنظر عبر الصحراء الفسيحة المظلمة . : أخيراً قالت كمن تحلم بشىء بعيد .: بعيد :

– لو حصلت على حقى فى البعثة للخارج : : فسأدرس كل شىء عن المزارع الصناعية : . سأعرف تفاصيل جديدة عن تصنيع المحاصيل واللحوم والرمال و .. أخذت نفسا عميقا . : وأضافت :

ـ أحلم بالسفر للخارج قبل أن أموت ! ..

وواصلنا السير فى صمت ! ..

. . . .

. . . .

— ٢٥ —

وقفت أرقب محركات الطائرة وهى تدور ، وتثير تياراً من الهواء يحرك الرمال القريبة .. وصافحنا المستر جون ميللر واحدا واحدا ، مبديا الكثير من المودة ، وقال لى أخيراً :

ـ حتما سنلتقى مرة أخرى .. ويسعدنى أن أرى أبحاثك الجديدة .

ثم لوح بيده وصعد سلم الطائرة ، فرفعت صوتى وقلت ..

ـ ستجد أننا نتقدم .. فهى أرضنا ونفهمها جيدا ! ..

فعاد يلوح بيده وغاب داخل الطائرة وفى أعقابه وقف مديرنا الوقور ، يوجه إلينا نصائحه بإيجاز شديد .. قال ..

الأبحاث والدراسات يجب أن تتم بأسرع وقت .. لأننا سنقيم المزرعة الصناعية .. وسنديرها أيضاً . الاحتمال الأرجح الآن أننا سنعتمد فى ذلك على أنفسنا .. مفهوم ؟ . .

و ..

لحق به عاطف على سلم الطائرة .. وقال بارتباك شديد .

– كنت أريد أجازة .. ولو يومين فقط لأننى خاطب .. وأريد إتمام الزواج لكى ..

.. ربت المدير على كتفه بمودة .. وقال له .

– بعد أسبوع بالضبط .. سأجىء لأرى أبحاثكم .. وأعدك بالأجازة.. إذا كنت موفقا كما أتوقع !

و ..

انطلقت الطائرة .. دون أن تصعد سوسن وفريدة .. صحت بفرح .

– منى .. منى ؟ ..

ومرولت عائداً إلى غرفة البنات ، فوجدتها تطل من النافذة ، فى البالطو الأبيض ، وتخرج لسانها وتضحك .. قلت لاهثا ..

– آه .. يا بنت القرود ؟ ! ..

وهممت أن أعانقها ، لكنها قالت بحسم .

– لا تكن طائشا ؟ .. دعنا نجرب أن نكون أصدقاء ! ..

و . .

جمعنا العمل مرة أخرى ، فى العنبر الخشبى الذى كان العمال يستكملون بعض نوافذه الآن محدثين ضجيجا شديداً ، يتردد صداه فى الصحراء الفسيحة جداً ..

وفجأة ظهرت العربة الجيب بسائقها الأسمر الخفيف الظل ، وبجواره « شيرين » التى لوحت لنا بيدها فهرول إليها عاطف لاهثا .

– آنسة شيرين ! :. نورت الصحراء الغربية كلها ! . .

ضحكت الفتاة الجميلة ، وهبطت من العربة الجيب برشاقة ، ولوحت لى :: وللبنات وقالت :

– سأكون ضيفة عليكم من الآن ! ..

هلل عاطف ، وأمطرها بكلمات الترحيب والإعجاب و : : أخيرا فهمنا أن شيرين ستكون من الآن مندوبة المحافظة لدينا .: لتكون رفيقة أنيسة لزميلاتنا البنات ! ..

نظرت إلى منى وسألتها :

– ما رأيك فى هذه الرقيبة الحسناء ؟ ..

أخرجت لسانها ، وقالت :

– يظهر أنها صديقة قديمة لك أنت وعاطف ! ..

تماديت فى إغاظتها .. قلت :

– آه يا منى . . ماذا كنا سنفعل فى هذه الصحراء الجافة المخيفة بدون شيرين ورقتها وسحرها و .:!

قالت :

– أنت قليل الأدب ! ..

وأخذت تفحص عينة الرمال الطينية ، دون أن تنظر إلى فضحكت . . وداعبتها :

– تغارين على يابنت الـ ...

نظرت إلى نظرة سريعة .. لا تخفى مودتها وحبها .. وقالت :

– دمك ثقيل جداً .. هل قال لك أحد ذلك من قبل ؟ . .

قلت :

– عشرون امرأة .. فى سبع سنوات ؟ ..

قذفتنى بحفنة من رمال التجربة ، وصمتت .. قلت لها :

– ماذا جرى لعقلك يا .. عاقلة ؟ ..

و . .

لسعنى لسان عاطف ، مؤنبا :

– إننا بهذه الطريقة العيالى .. لن نفعل شيئا ..وكان يجب أن نعود للقاهرة بدلا من تعذيب أنفسنا هنا ..

خلجت من نظرات البنات ، وضحكات شيرين و .. انشغلت بعملى.. لكننى تذكرت شيئا ، فسألت منى :

– قلت أمس إنك ستسافرين ؟ . .

قالت مسرعة :

– أصر المدير على بقائنا .. لإتمام التجارب هنا ! ..

ثم أوضحت الأمر لى :

– سوسن وفريدة بكتا .. لكنه قال إنه سيذهب إلى أسرتيهما بنفسه ليطمئنهم و .. حسم الأمر بقوله : لن تأكلكما الذئاب هنا .

ثم علقت ساخرة :

– هل لديك أى اعتراض أيها الذئب الـ ...

سألتها :

– متى نتزوج .. لكى أقطع لسانك ؟؟ ..

فأجابتنى ساخرة ..

– الليلة إذا شئت ؟ ! ..

صحت ..

– الليلة ؟؟ ..

هزت رأسها موافقة .. وأخرجت لى لسانها وانهمكت فى عملها .. بينما غمرنى ارتباك شديد فتعثرت رمال التجربة وأوقعت عدسة التكبير .. وصاح عاطف :

يا بنى أفق لنفسك .. لابد أن تتم التجارب .. وأن نزرع الصحراء الغربية كلها ونملأها بالمصانع .. على الأقل لكى يعرف كل من يهمهم الأمر فى الدنيا أننا رجال .

قاطعته بثقة كبيرة :

– سنزرع كل أحلامنا يا ولد فكف عن الخطب والهتاف ودعنى أعمل ! ..

ثم حاولت أن أعرف : هل منى جادة فى موافقتها على الزواج أم أنها تريد فقط أن تؤكد لى أن إهانتى لها لم تعد تعنيها ..

و .. حاولت دفعها للحديث معى .. لكنها ازدادت انهماكا فى العمل فى صمت ! ..

. . . .

. . . .

رقص الحاج جميل السهار .. بالعصا حتى تصبب جسده عرقا .. وقامت زوجته الست أم فضيلة باعداد « منى » للزفاف ، وسط زغاريد سوسن وفريدة وشيرين ورقصات البنت فضيلة التى ملأت ليلة للفرح بالبهجة بتقليدها لوالدها .. واقترح عاطف أن يكون هو المأذون .. لم تكن هناك دفاتر الزواج المعتادة ، وقالت سوسن نسجل الزواج فى دفاتر إجراء التجارب.. وضحكنا ثم أحسسنا بالورطة .. كيف يتم عقد القران ؟؟ !

قال الحاج جميل السهار :

— تزوجها على طريقتى أنا ؟ ..

ونظر إلى زوجته ذات العيون الخضراء .. وتوقف لحظة ثم أضاف :

— يكفى أن تهب نفسها لك أمامنا .. ونحن شهود على ذلك ! ..

قالت شيرين :

— زواج عرفى .. تقصد ؟

قال ساخراً :

—سميه ما شئت يا ابنتى .. المهم أنه زواج مقبول .. فالأصل فى الزواج هو شهادة الشهود .. وعلنيته ! ..

قلت بتردد ظاهر :

— أنا لا أفهم فى هذه الأمور .. لكننى أريد الزواج .. الليلة ؟

وضحكت البنات .. وفجأة قالت منى :

ـ أركب جواداً وأجرى فى الصحراء .. ويطاردنى خالد بجواد آخر .. فإذا لحق بى فاز بالزواج .. ما رأيكم ؟؟ ..

هلل الجميع فى مرح لهذه الدعابة .. لكن الحاج جميل السهار قال محذرا :

ـ لعبة خطرة .. فالذئاب تملأ الصحراء ليلا ! ..

وقال عاطف :

ـ ما رأيك ياشيرين ؟ .. أنت تعرفين هذه المنطقة أكثر منا ؟ ..

قالت باندهاش :

ـ الحاج جميل السهار يعرف أكثر منا جميعاً ! ..

ضحك عاطف وقال :

أقصد . ما رأيك فى أن نفعل مثلهما .. هذين الطائشين !

وازداد التهليل و .. أخيراً قالت منى باستخفاف واضح :

ـ نؤجل الزواج لحين عودتنا للقاهرة .. أو نؤجله إلى الأبد !

نظرت إليها ضاحكا ، فهى الليلة تدلى باقتراحات مسلية .. لكننى صدمت بجديتها ورأيتها تتخلص من زينتها التى بذلت أم فضيلة جهداً كبيراً فى إتمامها .. وفوجئت بها تقف بيننا وتقترح أن نرقص جميعاً .. لننهى هذه اللعبة !

ووجم الجميع .. وتأكد لى أنها مصابة بخلل فى عقلها .. فحزنت من أجلها .. ولكن سرعان ما جذبتنى من ذراعى وأخذتنى إلى جوارها .. وقالت :

ـ لعبنا الليلة بما فيه الكفاية .. وأنا سعيدة جداً بهذا ؟؟ ..

انسحبت أم فضيلة ، ساحبة طفلتها معها . . لكن البنت أطلت من من خلف الباب وقالت :

– مساخيط .. مساخيط ! ..

واختفت وسط تهليل سوسن وفريدة وشبرين وعاطف . . أما الحاج جميل السهار فقد نصحنا بالنوم فوراً لكى نتمكن من مواصلة عملنا فى الغد ! . .

. . . .

. . . .

أصبحت وحدى مع منى . . فى غرفتى . . لا أعرف أين ذهب عاطف ، جلست صامتا . . غيرت منى ثيابها وهى أيضا صامتة . . ثم زحفت إلى جوارى فى الفراش . . نظرت إليها . . أول مرة أراها فى ثوب النوم القصير جدا . . سألتها :

–كان يجب أن تنامى مع سوسن . .

قاطعتنى بلا مبالاة : أعرف كيف أحافظ على نفسى . . المهم . . هل قرأت الرسائل التى أعطيتها لك ؟؟ . .

نظرت إليها وهممت بضربها . . لكنها قالت بمودة :

– لم لا نقرأها معا ؟! . .

فى ثانية .. اجتاحتنى كل آلامى التى سببتها لى .. و .. أردت أن أعاقبها .. أن أعذبها ، مثلما تعذبنى فأسرعت إلى حقيبتى وقلبتها حتى تناثرت ثيابى منها ، وعدت لها بحزمة الرسائل وقلت بلهجة من يريد الغوص فى فشل أحلامه حتى النهاية :

– تسلية لطيفة فى ليلة زفاف لم يتم :: هيا اقرئى ! ..

تمددت على الفراش، ووضعت ساقيها فوق ساقى المجاورة لها :: وفتحت الرسالة الأولى . : فقلت :

– هذه قرأتها .. مسكين صاحبك « سعيد » هذا .. كان يستعين بحبه لك على وحدته فى خنادق الجبهة ! ..

قالت بأسى :

– انتظرته كثيرا ..

قاطعتها :

– طلب منك انتظاره أمام محل أمون بجور البن البرازيلى ..

قالت ساخرة :

– ذاكرتك قوية ! ..

سألتها ، وجنون الشك يطل من نظراتى ، ويلهب كلماتى :

– ذهبت إليه فى الموعد ؟ ! ..

قالت بأسف شديد :

– لا ؟ . . لم أذهب ؟ : .

قلت بغيظ شديد :

– لماذا ؟؟ :: إنه عاشق متيم بحضرتك ! فكيف هجرك ؟! ::

قالت :

– هجرنى مرغما :. استشهد :: فى سيناء .. وذهبت مع أمه لاستلام جثته من المستشفى العسكرى ::

نظرت إليها واجما و .. و أشعلت سيجارة وقلت :

ـ آسف ..

تنهدت بعمق شديد ، وقالت :

ـ رأيته كثيرا .. أربع سنوات فى جامعة واحدة .. فى كلية واحدة فى مدرج واحد .. ومع ذلك لم يقل لى أبدا أنه يحبنى .. فقط قالها فى خطاباته يوم أخذوه إلى الجبهة .

لم أعلق بشىء .. طال صمتنا .. أخيرا سألتها لأحسم كل ظنونى :

ـ والتجربة الثانية ؟؟ أقصد الرسالة الثانية . . ممن ؟؟ . . أغمضت عينيها لحظة .. ثم قالت :

ـ هذه الرسالة .. لهـا تجربة غريبة ! . .

وفتحت المظروف وبدأت تقرأ . . وأنا أحاول التحكم فى أعصابى ، لكى أتابع صوتها . .

و ..

عند الفجر كنت أمام واحد من أغرب المواقف فى حياتى .

كانت منى مبللة الوجه بالدموع . . وكنت أنا صامتا . . لا أعرف ماذا أقول . . إنها إما قديسة .. أو أنها كاذبة ، أو أنها سيئة الحظ أو محظوظة .. أو أننى أنا المحظوظ بها .. لا أعرف بالضبط ما هو شعورى فى تلك اللحظة .. غير أننى كنت غارقا فى متاهات غريبة .. أكاد أصدقها ، ولكن الشك فيها كان يعصف بكل أحلامى .. وازداد اضطرابى وطال صمتى .. وجدتنى أعيد قراءة الرسائل السبع .. وأخذت ألخصها لنفسى على النحو التالى :

الأول : استشهد فى الجبهة . . .

والثانى : اعتصم بالجامعة من أجل أستاذه الذى فصل هو وزملاؤه الذين سجنوا .. وتم اعتقاله ولا أحد يدرى للآن مصيره ! ..

والثالث : رفض الزواج منها قبل عودته من بعثة لدراسة الألكترونات.. وعاد بعد عامين لكنه اختفى منها .. ولا تعرف مكانه حتى الآن ! ..

— والرابع : مات فى حادث تصادم على طريق مصر — الاسكندرية الصحراوى ! ..

— والخامس : تزوج من ابنة عمه . . وفاء لوعد عائلى قديم ! . .

— والسادس : صارحها بعجزه عن الزواج من إنسانة فقيرة مثله و .. ونزوج من أسرة ثرية ! . .

— والسابع : هاجر إلى بلد عربى . . وأعلن لها أنه سيظل « عانسا » للأبد . . لأنه لا يثق بالنساء بعد الذى جرى له من إحداهن !

وضحكت بألم حتى دمعت عيناى . . وقلت ساخرا منها ومن نفسى :

— شىء غريب حقا . . أصارحك بأننى أسأت الظن بك كثيرا . .

قالت : لقد كنت أحبهم حقا . . كنت أحلم بالسفر فى بعثة مع أحدهم !

وكنت على وشك النوم ، لكن لسانها الحاد لسعنى بكلماتها السخيفة . . فتنبهت وقلت بغضب شديد فشلت فى إخفائه :

— إذا لم تكفى عن هذا الهذيان . . فسأضربك علقة ساخنة ؟؟ . .

قالت وعيناها تكشفان عن استخفافها بكلماتى وبغضبى :

– صحيح أنت أول من جعل مسام جلدى تتفتح للحياة . . وترتوى بعد ظمأ طويل مرهق . . لكن هذا لا يمنعنى من مصارحتك بكل شيء .

قلت محاولا إنهاء الموضوع كله :

– ليكن ماضيك ما كان . . المهم أنه ماض ، وأن أمامنا الحاضر والمستقبل معا ، وعليك أن تعرفى أننى أحاول نسيان تقاليدى ، و . .

قاطعتنى بعناد :

– وماذا عن ماضيك أنت ، ماذا عن تقاليدك المتخلفة التى تنبع منها أفكارك السخيفة ؟! . .

نظرت إليها بغضب شديد ، فعادت تكرر سؤالها بالحاح :

– وماذا عن ماضيك أنت . . ماذا عن تقاليدك العالقة بدمك ؟؟

قلت : لا يمكن أن ننسلخ من تقاليدنا وعاداتنا إلا بعملية بتر !

صاحت : أنت كاذب . . ومنافق ومتخلف جدا ! . .

ولم يكن أمامى غير أن أجذبها من شعرها . وأن ألفه حول يدى ، وباليد الأخرى أخذت أصفعها على وجهها حتى أدميت شفتيها ، وتركت بصماتى على فخذيها و . . ولم تتأوه . . لم تصرخ ، بكت فى صمت وازداد هياجى فغرست أظافرى فى جسدها . . فى صدرها فى ذراعيها فى فخذيها . .

و . . لم أسمع صوتها إلا عندما التصقنا فى جنون وأخذت تتلاقى معى فى لهاث يلهب جسدينا ، ولكنه كان تصادما مرهقا ومتعبا وخاليا من المودة هذه المرة ! . .

. . . .

. . . .

وقبل أن ننام ظلت تحكى عن عطش عقلها لتجربة سفر طويل .. طويل و . .

؟ ؟ . . . .

؟ ؟ ؟ . . . .

— ٢٧ —

طوال اليوم التالى . . كانت شيرين دائما بالقرب من عاطف . . كانا يتهامسان . . وكان هو أكثر الناس نشاطا فى العمل ، وكانت هى أكثر تألقا . . وتسرع فى تلبية أية طلبات تحتاج إليها و .. لاحظت أن سوسن ، وفريدة .. تفهمان كل ما يحدث بينى وبين منى . . وبين عاطف وشيرين و . . و .. تبادلت معهما ابتسامة سريعة واسرعت إلى الصحراء .. بعيدا عن العنبر الخشبى ، وناديت الحاج جميل السهار وطلبت منه أن يصحبنى إلى الأماكن التى قام الأجانب بالحفر فيها من قبل . .

سألنى :

— ستبحث عن البترول يا ولدى ؟ . .

قلت :

— أريد أولا أن أتأكد من وجوده .

صاح بثقة :

— البترول موجود تحتنا . . أنا أشم رائحته منذ خمسين سنة هنا . . لكن الخواجات يكذبون .. يريدون أن نظل فقراء . . يكرهوننا . . واسألنى أنا ؟ . .

وأخذ يثرثر عن ملاحظاته على الأجانب الذين جاءوا للحفر هنا ، وأنهم كلما لاحظوا آثارا للبترول فى العينات أسرعوا باغلاق البئر وقالوا « فاضى . . فارغ » . .

توقفنا أخيرا عند آثار حفريات ، وسط تلال من الرمال . . بالقرب من كهفى أنا ومنى .. أشار الحاج جميل السهار . . هنا حفر الخواجة « ترنر » من عشر سنوات .. لكنه أزال الأثر . . ومسح العلامات . . وحمل حفاره ورحل ، وفى الطريق قالوا أنه مات . . أو ضل الطريق . . لا أعرف . . المهم أنه لم يعد إلى بلده ؟ . .

داعبته :

— ومن أدراك أنه لم يعد إلى بلده ؟ . .

قال الحاج جميل السهار ، وعيناه تختلجان بارتباك :

— زميله قال هذا . .

انشغلت بتحديد مساحة المنطقة ، واختبرت بعض رمالها بأصابعى .. وأنفى . . وأسرعت لاحضار حفار وبعض الأجهزة . . وظل الحاج جميل السهار بجوارى . . يشاركنا دق الحفار وحمل العينات . . وانتظار النتائج .. وكان من حين لآخر يقول :

— لابد أن تثبت أن هذا الخواجة « ترنر » بالذات كان بغلا . . كان حمارا . . وأنه يكرهنا . . ويخفى أن هنا بترولا ! ..

داعبته ، لمجرد التسلية ، والتخفف من بعض الإرهاق :

— هل بينك وبينه ثأر قديم ؟ ..

فلف سيجارة ، وأعطاها لى .. ولف لنفسه واحدة أخرى وأخذنا ندخن .. ثم قال :

ـ فى ليلة مثل هذه .. وسط أمطار وعواصف .. جاءت زوجة « ترنر » إلى خيمتى مفزوعة .. وطلبت أن أحميها من الخواجة الذى لا يكف عن ضربها كل ليلة ..

سألته :

ـ وصدقتها ؟ ..

قال الرجل :

ـ كان جسدها مجروحا .. وقالت أنه ضربها بماسورة جاز .. وربما قتلها فى المرة القادمة ! ..

جذب الرجل نفسا عميقا من سيجارته .. وحدق طويلا فى أكوام الرمال التى ملأت العنبر برائحة الجاز .. ثم قال :

ـ ذهبت إليه .. ولم ينكر أو يعتذر ! ..

قلت :

ـ امرأته وهو حر معها ؟ ..

قال :

ـ هذا فى خيمته هو .. أما أن يفعل ذلك فى خيمتى .. فالمسألة تصبح محرجة جدا لى ! ..

وصمت الحاج جميل السهار لحظة أطول .. وانتظرته أن يتم حكايته عن ترنر وزوجته و .. أخيرا قال :

– أنت لا تعرف البدوى منا . . إن أية امرأة تلوذ بخيمتى . . وتطلب حمايتى . . يكون لها ما لزوجتى من حقوق . .

و . . تذكرت عينى زوجته الخضراوين . . وعينى البنت فضيلة و . . حاولت الانشغال بعملى . . فقال باسما :

– رأيت خواجات كثيرين هنا . . لكن ترنر لم يكن رجلا . . و . .

وحمل الحاج جميل السهار ، عمودا طويلا من الحديد ، وقال :

– سأقوم بحراسة الحفار . . حتى يظهر البترول . . الله معكم يا ولدى.

وغاب وسط الظلام والرياح والأمطار ، بينما حاولت أنا أن أقوم بمراجعة لحساباتى مع التجربة الأخيرة لكننى شعرت بالإرهاق والجوع . . فأخذت طريقى إلى الاستراحة . . يملؤنى الحنين إلى منى . . فأخذت أردد أغنية فرعونية قديمة :

– عندما أراك . .

كل نظرة . . تصبح . .

أطيب لى من أى طعام . . أو شراب . .

عندما أراك يا مناى وأحلامى المليئة بالثقوب . .

وهرولت هربا من البرد اللاذع . . والأمطار التى يبدو أنها لن تكف عن مطاردتى . .

. . . .

. . . .

اقترب موعد وصول الطائرة .. وعليها مديرنا الوقور .. واستطعنا إنجاز ما يمكن أن نفخر به .. وكنا قد بدأنا فى الصباح فى تحديد المساحات الأولية للمزرعة ، بعلامات من الجير ، وشاركت شيرين والحاج جميل السهار وعمال المحافظة فى إنجاز نصيب كبير من هذه المهمة بينما انشغلت أنا ومنى وعاطف وسوسن وفريدة ، فى مراجعة كل تجاربنا ، وتحديد النتائج فى مذكرة موجزة نعرضها على مديرنا .. وصاح عاطف :

— سأرتاج منكم غداً يا أولاد الـ .. سأحصل على الأجازة .. و .. وأتزوج .. وبعد أسبوع أعود إليكم ومعى سعاد .

و .. باركنا له .. مقدما .. واقترحت سوسن :

— لابد أن نحتفل بهذه المناسبة يا جماعة ..

ورحب عاطف ، بل وأقسم — دون حاجة لذلك — على أن تكون جميع مصاريف الحفل على حسابه الخاص !

وفى المساء ، ذبح الحاج جميل السهار خروفين ، وأعلن أن عاطف اشترى أحدهما .. أما الخروف الثانى فهو هدية منه لنا .. بمناسبة تأكده من وجود البترول فى نفس المكان الذى فشل فيه « ترنر » .. وأحطنا به وهو يشوى الخروفين على النار فى حديقة الاستراحة ، وسال لعابى .. وداعبت أنف منى ، وضحكنا .. واقترحت فريدة :

— هيا نرقص كما نرى فى الأفلام .. إننى لأول مرة أرى خروفاً يشوى .. هيا نرقص !

وبحث عاطف عن صفيحة فارغة ، أدارها على ركبته وجعل منها طبلة ، وصفقت أنا والحاج جميل وزوجته وابنتهما فضيلة ورقصت منى وسوسن وفريدة و . . فضيلة التى أعلنت أنها ترقص أحسن ألف مرة من المساخيط و . .

أكلنا حتى شبعنا .. وجلس الحاج جميل السهار يصنع لنا الشاى العربى وأعطى شيئاً ملفوفا فى ورقة لعاطف وهمس له بفوائده خصوصاً ليلة الدخلة و .. ضحكنا . .

فى آخر الليل ، دعانا عاطف إلى غرفته ، فى نهاية الاستراحة ، ولم يخجل من وجود بعض ثياب شيرين على فراشه ، وجلس بيننا . . وفرد لوحة كبيرة ، أمامنا . . فرأينا تصميما لمنزل أنيق محاط بالأشجار .. و .. سألته :

– لمن هذا المنزل الساحر يا ولد ؟ ..

قال :

– خمنوا ؟ ..

قالت سوسن :

– لأمير عربى ؟؟ ..

هز رأسه نفيا ..

قالت منى :

– للإيجار ! ..

وضحكنا ..

قالت شيرين :

ـ أحلم بمنزل مثله ؟

قال عاطف :

ـ أنتم أغبياء .. إنه منزلى أنا وسعاد و ..

فصحنا غير مصدقين ، فعاد يقول مشيراً بأصبعه إلى أجزاء التصميم :

ـ هنا سأقيم أنا وسعاد .. سيكون عندنا طفلة حلوة . . ونسبح فى هذا الحمام .. ثم نغطس تحت الماء وأداعبها وتداعبنى .. وتحت هذه الشجرة سآخذ سعاد فى أحضانى ونفعل ما نشاء لنغيظكم جميعاً و .. أخيرا صاح :

ـ متى يصل المدير .. متى تصل الطائرة ؟ .. ما رأيكم .. هل أستطيع أن أطير بذراعى إلى القاهرة .. أوحشتنى سعاد يا ولاد ال ..حذرته مداعبا :

ـ إياك أن تروى لها ما فعلته هنا .. وإلا ؟ ..

وتبادلت البنات النظرات وضحكن ، بينما احمر وجه شيرين ولكنها شاركت فى الضحك حتى .. حتى تثاءبت .. وأسرعنا إلى غرفنا . . بعد أن أقسم عاطف على أن يعود بعروسه بعد يومين لنحتفل بها ..

كانت منى بجوارى ، فأخذت أحكى لها تفاصيل أول تجربة لى مع امرأة .. قلت :

ـ بعد أن وصلت إلى القاهرة بشهر .. دعانى زميل إلى مسكنه وهناك..

قرصتنى بعنف ووضعت أناملها على شفتى .. فقبلتها و .. سألتنى :

ـ وأنت فى الأقصر يا حبيبى لا تكذب ؟ ..

وضحكنا وتبادلنا قبلة طويلة .. طويلة .. وأطفأنا النور وسمعتها تهمس :

— حتى لو افترقنا .. فحبنا جدير بأن نفعل ما نريد ! ..

وحاولنا أن ننام .. أنا حاولت ذلك ، لكننى ظللت مشغولا بسؤال :

— هل أهنت منى حقا عندما دفعتنى هى للشك فيها . . وهل يترفق بنا الزمن فيجعلنا ننسى ونكف عن تبادل الشك والاحتقار الخفى ؟ ! ..

. . . .

. . . .

— ٢٩ —

جاءت الطائرة فى الصباح الباكر . . وهبط منها المدير . . بوقاره المعهود .. وصعد زميلنا عاطف الطائرة .. لكنه كان محمولا على أكتافى أنا والحاج جميل السهار . . وبعض العمال . . كان راقداً فى سلام داخل صندوق خشبى صنعناه له نهار أمس . . ونحن جميعاً نبكى دون كلمة واحدة ! ..

لقد فعلها الولد المرح .. ومات دون أن ندرى . . وجدناه فى صباح الحفل الذى أقامه لنا ، ميتا فى فراشه . . وكان عنقه أزرق اللون قاتما .. متورما .. واستدعينا الطبيب من المحافظة . . ذهبت إليه شيرين فى العربة الجيب .. وجاء بعد ساعتين و .. لكنه أعلن بأسف شديد :

— لدغته عقربة فى رقبته ! ! ..

و ..

بهت المدير ، تخلى عن وقاره ، وهتف :

ــ غير معقول .. أحمل له أجازة لمدة أسبوعين لكى يتزوج ! ثم ..
انهار يبكى ، وهو يتابع حصاد عملنا فى العنبر الخشبى .. وهمس :

ــ كان ولداً نموذجيا بحق .. كنت أعتمد عليه فى مثل هذه المهام العاجلة والخطيرة ! ..

وفى الطائرة ، كانت شيرين منكفئة على الصندوق الخشبى تبكى بألم شديد .. وتبوح بأشواقها لعاطف .. وابتعدت عنها أخيراً ، عندما أخذت تحكى له كيف كانت سعيدة وهى تحبه وهو يحبها ..

. . . . . ؟ ؟ ؟ . .

؛ . . . . . . ؟ . .

أعلن المدير ، أنه سيعود ومعه سوسن وفريدة ومنى : وأننى .. سأظل هنا لأتابع تنفيذ المشروع مع المختصين الذين سيصلون غدا .. و ..

حاولت أن أعترض .. قال :

ــ سأرسل لوالدتك فى الأقصر أطمئنها ! ..

حاولت مرة أخرى أن أعترض .. فقال :

ــ أن ما سهرت أنت وعاطف فى إعداده .. فى حاجة إليك لتنفيذه .. ثم إن .. ليس لك أحد فى القاهرة .. أقصد أن بقاءك لن يضايقك أو يضايق أحداً .. و ..

دارت محركات الطائرة .. وانتظرت أن تحتج منى .. أن تعلن أنها ستبقى معى .. أنها ستقلق من أجلى .. أننى فى حاجة إليها .. أننى يجب أن أسافر معها لنتزوج .. أن .. أنها .. أننى أنها ..

حلقت الطائرة ، وابتعدت و .. سالت دموعى رغماعنى :.لقد تركني عاطف :: ومنى :. فى لحظة واحدة ! ..

فى طريقى إلى الاستراحة ، رأيت شيرين فى العربة الجيب .. لوحت لى بيدها .: وقالت بصوت يخنقه الألم :

— سيصل العمال اللازمون غداً .. ليبدأوا العمل معك ! ..

سألتها :

— وأنت ؟ ..

قالت :

— هل تريد شيئا أرسله إليك ؟ .:

قلت :

— أتعرفين أن منى رحلت دون .. كلمة ؟ ..

قالت : لكنها تحبك ..

قلت :

— أرجو أن ترسلى لها برقية .

كتبت عنوان منزل منى على ورقة أعطاها لى السائق الطيب .. و .. بعد لحظات ، كنت وحيداً يتيما وسط الصحراء الواسعة ! .

ومن بعيد ، كانت البنت فضيلة تحجل على ساقيها بالتبادل وتلعب مع زملائها وزميلاتها أطفال البدو .. وعندما اقتربت منها وقفت أتابع اللعبة ، فهللت فى وجهى وقالت :

— يا مسخوط ! ..

ومضيت أنقل خطواتى فى الرمال بصعوبة ، وصلت إلى منطقة « ترنر » فرأيت الحاج جميل السهار يغرس عصاه فى الرمال بكل قوته وسمعته يغمغم :

ــ سيخرج البترول من هنا .. ويملأ الصحراء بالجاز : والمصانع .. وستعرف يا ترنر الكلب أنك حمار ؟ ..

وسرت إلى المساحة الشاسعة التى أمكننا تحديدها بالأحجار البيضاء فى أيام .. بفضل حماس الولد عاطف ! ..

حاولت أن أتخيل المزارع الخضراء تكسو وجه الرمال .. حاولت أن أتخيل الأشجار العالية تصنع جداراً سميكا عاليا يصد الرياح عن الزرع الـ ..

وصلت إلى الكهف ، جلست ، أسندت ظهرى إلى الحجر الفرعونى الضخم القديم .. و .. أطلقت صفيراً طويلا أليفا .. مشتاقا .. وجف حلقى .. فقلت :

ــ يا بنت القرود .. تدمرين أحلام العمر فى لحظة طيش ..

وقلت لنفسى :

ــ إنها نهاية سخيفة لكل شىء ..

أقبل الحاج جميل السهار ناحيتى ، كان باسما .. ودوداً .. جلس بجوارى .. أخذ يلف سجائره .. وأخذنا ندخن .. أخيراً قال :

ــ كان يجب أن تجعلها تبقى معك ؟ ..

قلت :

ــ لو أنها أرادت ذلك ما منعها شىء ؟ ..

أطلق الدخان من أنفه وفمه ، فتسلل بين شعيرات شاربه وذقنه الذى وخطه المشيب .. وألقى بنظرة صقر عبر الصحراء .. ثم قال :

– لو كنت مكانك لأرغمتها على البقاء ؟ ..

نظرت اليه طويلا .. وقلت :

– أنت لاتعرفها يا حاج ..

ضحك وقال :

– لكننى أعرف أنها مثل أية امرأة فى الدنيا .. تذعن لكلمة الرجل الذى يعرف كيف يملى إرادته فى الوقت المناسب ..

ضحكت طويلا .. ثم سألته :

– أحببتها لدرجة أننى كنت أخشى أن أفقدها ألف مرة فى اليوم ،

قذف حجرا الى مسافة بعيدة .. وقال :

– إنها فتاة جامحة وأنت ولد طائش .. كان يجب أن تشعرها بأنك تحميها حتى من نفسها ..

قلت :

– ربما تعود .. وبما نستطيع أن نبدأ من جديد ..

.. مط شفتيه من جديد فى ضيق .. ونهض .. واستند على الصخرة الكبيرة .. ثم أشار بأصبعه فوق النقوش الفرعونية القديمة وقال :

– إذا لم تعد إليك .. فلا بد أن تذهب إليها .. لاتدعها تفلت منك وإلا ضاعت للابد .. إنها بنت لها وزنها يا ولدى ..

ثم سألنى :

— لماذا لاتسافر فى الطائرة القادمة ؟ . .

قلت :

— سأنتظر رسالتها . . لا بد أنها سترد على برقيتى التى ترسلها الآن « شبرين » من المحافظة .. حتما سترد .. وبعد ذلك نرى ما يمكن عمله؟ . .

. . . .

. . . .

— ٣٠ —

انطلقت الكاسحات تجرف الرمال من المساحات المحددة بعلامات الجير الأبيض .. وخلفها أخذت (بوابير) الرصف تشق أول طريق فى المزرعة الصناعية . . بينما نشط العمال فى زرع الحديد المدبب ليفصل بين الحقول . . وباشراف مهندس زراعى صغير السن أخذ العمال يملأون المساحات المتساوية بين كل حديدتين ، بعدد من جذور الشجر والنخيل والأسلاك الشائكة و . . كان عمال آخرون يلهثون وهم ينشئون أول حفار للبترول على مسافة ثلاثة كيلو مترات من أرض الخواجة ترنر .. وكان الحاج جميل السهار يلح فى السؤال عن السبب الذى ندق فيه الحفار بعيدا عن المكان الذى حدده لنا .. و . .

حاولت أن أشرح له الأمر ، لكنه ضرب قدمه فى الرمل ، وقال :

– هنا بترول ياولدى .. هنا .. ألا تشم رائحته ؟ ..

؟ ؟ ؟ . . ؟ . . . ؟ . .

وقفت أرقب أحلام عاطف وسوسن وفريدة ومنى .. وأحلامى .. وهى تتبلور ببطء .. لحظة بعد لحظة فى كل ثانية كان شيئاً جديداً فوق الرمال .. أو يغوص فى جوفها .. هللت البنت فضيلة .. وسألتنى :

– بتعمل إيه يا مسخوط ؟ ..

وضحكت لها .. وقلت :

– نزرع الأحلام يا فضيلة .. ستكبرين ذات يوم .. وتصبحين عروساً حلوة .. وتتزوجين فارسا جسورا .. وتنجبين أطفالا .. ويومها .. ستكون هذه الصحراء قد أصبحت جنة ..

تركتنى الطفلة أحلم وحدى .. وهرولت مع أقرانها تهلل حول الجرافات والكراكات و ..

لاحظت أن اليوم يمر دون أن تظهر شيرين .. كنت أتلهف على رؤيتها .. لابد أنها أرسلت البرقية إلى منى .. ولابد أن منى سترد فورا .. لابد ..

لكن ..

مرت خمسة أيام كاملة .. دون أن أرى شيرين .. تعبت من التحديق فى الطريق بحثاً عنها فى العربة الجيب .. تعبت من الانتظار .. قلت لنفسى :

— بعد يوم أو يومين ستأتى الطائرة : : سيهبط منها مديرنا الوقور : : وقد يكون معه الأمريكى جون ميللر : : وقد لا يكون معه . : لا يهم ، لقد بدأنا . : وسنستمر : . ولابد أن المدير سيثنى على همتى ونشاطى هنا . . لابد أنه سيجد ما يستحق الثناء . . أو على الأقل مكافأتى باجازة إلى القاهرة : . وقلت :

— لابد أن أمهد بذكاء شديد للأمر . : سأخبره بأن خطيبتى أوحشتنى جدا : : وسأقول له ذلك بسرعة وهمهمة وغمغمة : : حتى لا أعطيه فرصة للاندهاش أو التساؤل .. لكنه حتما سيسألنى :

— ومتى خطبت يا عفريت ؟ . : إنك عانس كما نعلم جميعا . . ومقطوع من شجرة . . و : . سأبتسم له ، وأخبره بأننى خطبت زميلتى « منى » وأننى .. وسيدهش الرجل ، ويتخلى عن وقاره .. ويقول :

— آه يا شيطان .. اخترت أجمل وأذكى فتاة عندى فى مصلحة التطور . :

و : . سيوافق على إعطائى أجازة ولو يومين . . وسأطير إلى منى : : وستفرح .. ستقول بطفولتها المرحة :

— طال انتظارى لك يا ولد ! ..

سأضمها بين ذراعى وأعاتبها :

— لماذا سافرت . . كان يجب أن تبقى معى هناك ! . .

ستخرج لسانها لتغيظنى . : وتحك أنفها فى أنفى .. وتقول :

— انتظرت أن تطلب منى البقاء : : لكن : : لكنك لم تفعل . : فظننت أنك مللتنى .. ثم إن شكك يؤلمنى .. يجرحنى ! ..

سأقرصها فى خدها .. وسأقول لها :

– يا مجنونة .. لقد شاخت أحلامى بعد سفرك المفاجىء .. لقد أصابنى التعب يا بنت القرود .. لقد جربت أن أنساك لكننى فشلت ! ..

وستقول لى :

– وأنا أيضا .. حاولت .. وفشلت ! :

– لكن لماذا وضعت ماضيك فى طريقى ؟

– إنه لا يزعجك ؟ ..

– لكنهم كانوا يحبونك ؟ ..

– فات وقت التراجع ! ..

– انغرس حبك فى قلبى ! ..

– وأنا أيضا ..

– وتغلغل فى عقلى ! ..

– وأعطى وعودا ومواثيق ؟ ..

– واختلط بدمائى ! ..

– وصنع خلايا جديدة فى جسدى ..

– واختلط بأنفاسى ! ..

– عطرا . شوقا .. لهفة ..

– وصرت أنت أنا ..

– وصرنا فى واحد ..

– عرفت نفسى ..

– وأدركت أن الحب لا يتجزأ . .

– وهذه قصتى يا حبة قلبى ونن عينى ..

– ولماذا تنتفض . . ترتعش . . لابد أنك مريض . . لابد أنك تشعر بالبرد .. التصق بى لأدفئك ! . .

و . . انخبط رأسى فى الحجر الفرعونى القديم ، وملأت ضجة الآلات والحفار أذنى بصخبها العنيف . . فعدت أحدق فى الأفق . . فى السحب . . فى الرمال .. فى العمال .. فى المكن .. فى الأطفال .. فى الخيام .. فى الحشائش البرية .. وقمت إلى مزرعة المستقبل . . وحاولت أن أطلق صفيرا طويلا . . حاولت أن أجعله متدفقا .. مليئا باللهفة .. لكن شيئا مجهولا كان يخنقنى ! ..

. . . .

. . . .

— ٣١ —

فى شهرين فقط ، عشت مليون سنة كاملة .. فهدنى التعب .. وبدت منى بعيدة . . جاءتنى شيرين فى الصباح ، فى العربة الجيب ، واعتذرت عن تأخرها :

– وراءنا عمل شاق .. نعمل ليل نهار . . كل ما يحدث هنا يبدأ ويمر بنا فى المحافظة .. كان يجب أن تأتى لتسأل .. على الأقل لترانى ؟ ..

ابتسمت متعبا . . اعتذرت بالضجيج المحيط بى من كل جانب . . قال الحاج جميل السهار :

– قلت له ذلك .. لكنه ولد طائش يركب دماغه .. ولا يترك العمل إلا آخر الليل ! . .

ربت على كتفه بمودة ورجوته أن يعد لنا أكواب الشاى العربى الثقيل .. فذهب إلى خيمته مبتسما ..

جلست شيرين ، كان ثوبها قصيرا جدا .. يكشف عن ساقيها المثيرتين، نظرت إلى عينيها .. كانت متعبة ، لكنها تبتسم .. قلت :

– ظننت أننى سأراك كثيرا ؟ ..

ابتسمت .. كانت تفهم أننى أدعى عدم الاهتمام برد منى على برقيتى .. قالت :

– أرسلتها فى نفس اليوم ! ..

قلت :

– وجاء مديرنا الوقور مرتين .. ولم أطلب منه أجازة ! ..

– ألم يقل لك آخر الأخبار ؟ . .

نظرت إليها .. كنت أتوقع شيئا سخيفا .. لكن ما دخل المدير الوقور ؟ . .

قالت :

– سيقام هنا فرع لشركة السياحة العالمية وسيأتى السياح من كل بلاد الدنيا ! ..

أعطيتها سيجارة ، فأخذت تدخنها .. قلت :

– وسيقيمون فنادق للسياح ؟ ..

هزت رأسها . . ايجابا . .

قلت :

– ستروج حال البدو .. أكيد ؟ . .

هزت رأسها إيجابا ..

ضحكت وقلت :

– هل نسيت الكلام يا شيرين ؟ . .

قالت :

– معى أخبار تهمك ! . .

قلت :

– أستطيع التخمين ؟ . .

قالت :

– ربما ؟ ؟ . .

ثم أعطتنى برقية من سطرين .. « عزيزى خالد عبد الستار .. أسافر بعد أسبوع إلى أمريكا . . بعثة لمدة عامين . . بخصوص المشروع الجديد .. هل أراك قبل الرحيل ؟ . . » .

طويت البرقية فى يدى . . وقلت لشيرين :

– هل جربت الشعور بعذاب الفقد ؟ . .

نظرت إلى طويلا . . وأخيرا قالت :

– أمى أصلها من اليونان : : وأبى كان بحارا ذائع الصيت فى البواخر التجارية : : ودعانى من عشر سنوات وسافرا : . لكنها سافرا للأبد هذه المرة : : كانت رحلة مشئومة : : غرقت الباخرة قرب أسبانيا و : .

قلت :

– آسف ! : :

ولفنا الصمت : :

فجأة صاح الحاج جميل السهار :

– الشاى العربى يا أولاد ! : :

لكنه تعثر فى الرمال وسقط ، فانسكب الشاى واختفى فى الرمال : : نهض الرجل بارتباك متضاحكا معتذرا . . و . .

دعوت شيرين للذهاب معى إلى الاستراحة لتعد الشاى بنفسها ، رحبت بدون تردد : : وعندما مررنا بجوار العنبر الخشبى توقفت ،وأطلت على الخبراء الزراعيين الذين يجرون التجارب على أنواع من النباتات والبذور داخل غرف زجاجية . : وقالت :

– شىء رائع أن يرى الإنسان ميلاد حياة جديدة فى هذا الخراب الكئيب ! : .

تلاقت أصابعنا : : وصعدنا إلى الاستراحة ! . .

. . . .

. . . .

« عزيزتى منى :. لقد تعبت من الترحال عبر غضاريف أجدادى وآبائى وأرحام جداتى وأمهاتى .: جيلا بعد جيل :. كذلك تعبت من التحليق بأحلامى بين القاهرة والصحراء الغربية. .أريد أن أستريح.. فعقلى مضطرب :: لا شك أن البعثة هامة بالنسبة لمستقبلك وبالنسبة للمشروع لكن زواجنا يجب أن يتم أولا :. فلتكفى عن التبرير فورا ، ولتركبى أول طائرة قادمة .. أنا فى انتظارك :: لا أستطيع أن أترك عملى هنا . : أقبلى فورا . . ولا تنسى أننى احتملتك فكرة : . وحلما . .وتعذبت كثيرا بسببك..لقد أخطأت أمك عندما تخلت عنك : . فأنت ما زلت طائشة : : تحتمين بعقلك لتهربى من كل شىء : : لماذا ؟ . :

— ملحوظة : عثرت على حلية أثرية .: اشتريت لك هدية جميلة جدا .: عقدا غجريا رائعا : . سأعلقه فى عنقك :. إنه على شكل درع ومطرقة وبلطة وخوذة : : سيحميك من كل الشرور : : فهيا :: أنا فى إنتظارك ::

(خالد)

: . : . . : . : :

: . . . .

طويت الرسالة دون أن أعيد قراءتها .: وأعطيتها إلى شيرين :

وقلت :

— ضعيها فى مظروف :: وأرسليها لبنت المجنونة :: إذا سمحت ؟

ضحكت وقالت :

ـ سأنتظرك :: أحضر فى أى يوم :. ولو لترانى ! .:

و :: ودعتها عند باب العربة الجيب :. والليل يلف الصحراء بغلالات قاتمة من الظلام و :. وقفت وحيدا :. أحدق فى النجوم اللامعة من حين لآخر ، بين السحب :. وحاولت أن أتذكر أيامى الماضية :. لكنها كانت سحيقة :: كثيرة :: ثقيلة .:

و : : فجأة دوت طلقات نارية متلاحقة ، أثارت الفزع فى معسكر العمال و :: أرعشت قلبى ! .:

أخيراً أقبل الحاج جميل السهار من أحشاء الظلام .. حاملا فانوسه وبندقيته وجثة ذئب يسيل منها الدم بغزارة .. وقال :

ـ الذئاب هاجمت حظيرة المواشى المستوردة وقتلت ثلاث أبقار !

وحاولت أن أقول شيئاً .. لكن المشرف الزراعى والطبيب البيطرى تكفلا بالمشكلة فوقفت صامتا :: أجتر أحزانى ! .:

. . . .

. . . .

ـ ٣٣ ـ

قبل أن نستكمل شق الطرق الجديدة ، قبل أن ترتفع سيقان الشجيرات الجديدة :. قبل أن ترتفع أسوار المصنع فى شرق المزرعة . . قبل أن تلد المواشى المستوردة :: قبل أن ينمو البرسيم المهجن . . قبل أن يتم رصف جدران القنوات والترع والمصارف .. قبل أن يجف عقد عملى الجديد كمدير

أبحاث بالمشروع .. قبل أن أشعل سيجارتى فى الصباح الموافق ٥/١٠/١٩٧٥ .. حملت إلى العربة الجيب برقية وردية ، على طرفها بخط ركيك كلمة (تهانى) .. وأسفلها رسم لوردة حمراء و .. ورقة خضراء وغصن أخضر ملتو وبعد سطرين .. قرأت جملة واحدة تقول :

« عقد القران مساء الخميس القادم .. فى مسجد السيدة زينب .. أنعشم أن أرك ؟ » ..

أمضاء : منى

. . . .

. . . .

بحثت عن كبريت لأشعل سيجارتى .. أسرع سائق العربة الجيب يشعل لى السيجارة .. سألته :

– أين الأخت شيرين ؟ ..

قال :

– تبلغك سلامها ..

سألته :

– لماذا .. لم تحضر معك ؟ ..

قال :

– أخذت أجازة أسبوعين .. سافرت إلى جدها فى اليونان .. عندما تعود سأبلغها أنك سألت عنها ! ..

هززت رأسى وأعطيته سيجارة ، وشكرته على البرقية .. وتسلمت منه بقية بريد المشروع .. صافحنى بفرح وقال :

ـ ألف مبروك يا أفندم ؟ ..

وهرول عائدا إلى عربته ، وسرعان ما اختفى فى الطريق الضيق الطويل الملتوى وسط الصحراء . . جلست على سلم الاستراحة والبرقية فى يدى . .

وجاء الحاج جميل السهار .. أبلغنى شيئا لم أفهمه . . سألته :

ـ كيف أصل إلى القاهرة فى ظرف ساعة واحدة ؟ ..

قال الرجل مداعبا :

ـ جملى أصابته الشيخوخة .. وجوادى لا يقوى على الطيران . وضحك بأبوته ، وقال :

ـ ماذا جرى يا ولدى ؟ . . إنك تبدو كمن انهدمت الدنيا فوق دماغه ؟ . .

قلت بألم شديد :

ـ لا شىء ؟ ..

نظر طويلا إلى عينى .. جلس بجوارى .. أخذ يرسم خطوطا متداخلة ومتعارضة ودوائر واسعة وضيقة فى الرمال أمامنا .. ثم قال :

ـ حلمت العمر كله بولد .. أربيه على احتمال الشدائد ومضغ الزلط .. وقطع الرقاب .. ويكون بعد ذلك ما يكون .. طبيبا .. مهندسا .. مديراً .. قاطع طريق .. المهم ألا يسرق أو يخون أو يفرط فى حقه ! ..

نظرت فى عينيه ،كان لونهما بنيا محروقا وسط جفون ملتهبة .. وتحتهما مباشرة يمتد أنفه الأفطس المغروس فى غابة كثيفة بيضاء من الشعر الممتزج تلقائيا بلحيته الوقور .. كان خنجره بارزا فى حزامه .. وكان رائق المزاج ، فثيابه الباهتة .. كانت نظيفة جداً اليوم .. وكان يضع (بلغته الفاسى) فى قدميه .. كأنه ذاهب إلى عرس !

قلت له :

– يا أبى يا شيخى ، يا معلم الصبر والشجاعة ، ما قولك فى فتى عاش عمره وعمر أجداده جميعاً وهو يصنع لنفسه حلما .. حلما واحداً ووحيداً .. أخذ يرعاه .. ويجعله ينمو ويبلغ سن النضج ثم .. ثم .. يستعمل الحلم عقلا ذكيا .. ثم .. ثم .. يختار الحلم لنفسه إنسانا غيرى ؟ .

لف السهار لنفسه سيجارة ضخمة ، وأشعلها ببطء .. وأخذ ينفث دخانها بتلذذ .. ويمسح شاربه ولحيته بتأن .. ثم قال :

– لا بد أن فيك وفيها .. خللا ما . . يا ولدى . . فمن عشرين سنة دخلت خيمتى امرأة أجنبية حسبتها جنية ، لكنها لاذت بى .. وقد أخبرتك بالقصة .. لكنك لا تعرف أن هذه المرأة هى أم فضيلة .. لقد تزوجتها . . ومات لنا صبيان .. ثم عاشت لنا فضيلة ..

سألته : هل قتلت خصمك .. أم أجبرته على الهرب خوفاً منك ؟

قال السهار :

– يا ولدى .. الرجولة الحقيقية هى أن تواجه خصمك وجها لوجه . . وأن تعاركه علنا .. أمام الدنيا كلها .. بعد ذلك لا يهم مصيره .. أو مصيرك .. فالدنيا ستعرف أنك كنت رجلا فى خصومتك !

ثم نهض الحاج جميل السهار .. وسار فى اتجاه المشروع .. أدرت حديثه فى عقلى بسرعة .. ثم هرولت خلفه .. قلت له :

ـ اعطنى خنجرك ! ..

نزع السهار خنجره من جرابه ، فلمع نصله فى ضوء الشمس .. خطف اللمعان بصرى لدقيقة ثم أعاده إلى جرابه .. وقال :

ـ لاتكن طائشا ؟ ..

فرحت لأنه يلهمنى فكرة التراجع .. لكنه أسرع يقول :

ـ عليك أن تختار سلاحك بنفسك .. وأن تدقق فى الاختيار .. لكى يكون سلاحك وليفا لك .. وفيا معك .. فالسلاح الذى لا تخافه .. يرهب عدوك ..

وضحك بأبوة ، ومسح لحيته وشاربه بأصابعه الخشنة الغليظة .. وقال « جرب عقلك وعقلها مرة أخرى » ثم أضاف :

ـ لا تجعلنى أصدق ابنتى يا .. مسخوط ؟ ..

. . . .

. . . .

ـ ٣٤ ـ

من قبل .. أعلن قيس حبه لليلى على الملأ فحرم منها .. ومن قبل .. قاتل عنترة من أجل عبلة .. وصار فارسا تهواه نساء وبنات القبائل .. ومن قبل بكى نابليون عند قدمى عشيقته جوزفين ، وألح فى معرفة عشاقها السابقين ، فسخرت منه .. فقال لها :

— أفضل أن أكون الاول على عرشك فى قرية .. على أن أكون الثانى فى إمبراطورية ..

ومن بعدهم جميعا ، ظلت قلوب العشاق تنزف الدم .. تتعذب و .. على حياء شديد ،ومن بعدهم جميعا ، جاءت طائرة الفجر ، وأفرغت صناديق .. آلات وعلدا .. وخمورا ، وعشرة من المضيفين وخبراء الفنادق ، وخمس فتيات جميلات وثلاثة من المهندسين الجدد

.. وضعت نفسى داخل الطائرة ، وأخذت معى « دعوة منى » ..

أعطيت لنفسى أجازة ٤٨ ساعة فقط ، فثمة طائرة ستعود بعد ثلاثة أيام هنا لإحضار المدير ، والأمريكى جون ميللر . . وعلى أن أكون فى استقبالها و ..

. . . .

. . . .

وفى القاهرة ، احترت .. ماذا أشترى لها .. لابد من هدية تليق بذكائها .. أرجأت الأمر للمساء .. ذهبت الى مسكنى فوق سطوح عمارة قصر المشتهى .. تذكرت المضيفة الأجنبية الحسناء و .. آلاف الذكريات و . . كان بالغرفة ساكن جديد . . أخبرنى بأدب أنه طالب وافد من أفريقيا وأنه يقيم هنا من ثلاثة أشهر و . . سمح لى بأن أغسل وجهى ، وأن أجلس قليلا معه لأشرب الشاى وآكل سندويتشات و . . هبطت من جديد إلى الشارع . . كانت الساعة الخامسة مساء . . ظللت أشير للتاكسيات نصف ساعة .. أخيرا توقف تاكسى به راكب لا أعرفه .. قال بمودة :

— طريقى مصر الجديدة .. هل أنت فى طريقى ؟ ..

ركبت شاكرا .. سألنى :

– البيه غريب ؟؟

ابتسمت وقلت :

– من الصحراء الغربية ..

ابتسم ، وعاد يسأل عن ..

هبطت من التاكسى عند عمرة .. عبرت الطريق بصعوبة .. هبطت إلى نفق عمرة .. بللنى الطين و .. خبطتنى عربة كارو .. وأفزعنى كلاكس سيارة نقل و .. تهت فى الشوارع والأزقة و .. بصعوبة تذكرت العنوان ..

صعدت درجات السلم المتآكل .. طرقت الباب المتداعى .. طال انتظارى .. لا أحد يرد .. طرقت الباب بعنف .. أطلت أحدى الجارات .. رأتنى شبهت على .. قالت :

– الست منى وأمها .. انتقلوا إلى الزمالك من شهرين ..

– أنت واثقة يا حاجة من أن ..

– عقبالك .. العريس الجديد ابن ناس كبار جدا و ..

. . . .

هبطت درجات السلم بغير حذر .. سقطت قدمى بين درجتين متآكلتين .. التوت قدمى وآلمتنى .. لاحظت فى وقت متأخر أنه توجد أنوار الفرح المعتادة على واجهة المنزل القديم .. فكرت أن أعود لأسأل الجارة السمينة عن عنوان منزل منى فى الزمالك .. لكننى فضلت أن أذهب إليها فى مسجد السيدة زينب .. لم تكن هناك فائدة من الكلام معها .. لابد أن لديها ألف سبب وجيه جدا .. ومليون تبرير عقلى جدا .. و .. لكن من هو .. وكيف حدث ما حدث ؟ .. و .. حبنا .. وزواجنا الذى لم

تم إجراءاته فى الصحراء .. و .. الامطار التى بللتنا و .. الكهف الذى ضمنا .. والحجر الفرعونى الضخم ونقوشه..وسيرها حافية تضع قدمها فوق آثار أقدامى فى الرمال .. والتجارب والأبحاث وآلاف الذكريات وعاطف .. وليلة توديعه التى ذبح فيها الخراف .. و .. الرقص و .. تجربة الوصول للأعماق لأحشاء الصحراء .. وضرورة إزالة كل الحواجز ، وبنوة حاضرنا لماضينا واشتهاؤنا للمستقبل ؟

– هل فقدت عقلها بنت القرود ؟ ..

– هل استعادت أمها ولايتها للأمور ؟ ..

– هل فقدت ثقتها بى إلى هذا الحد ؟ ..

ازداد اضطراب عقلى ، فلم أتمكن من التخمين بسبب واحد يريحنى من هذا العذاب !

. . . .

. . . .

— ٣٥ —

كانت قمرا فى ثوب الزفاف ، كان بجوارها زوجها المحظوظ .. يبتسم فى مودة للمحيطين بهما .. كان يحتويها بيديه .. بعينيه .. بهمساته التى لا تتوقف أبدا .. وكانت جدران المسجد مزدانة بالأضواء المبهرة .. وتوالت التكبيرات طوال إجراءات عقد القران التى كان يقوم بها أحد كبار المشايخ و ..

كان ظهرى للباب .. وعيناى تطلان عبر الزحام لأراها .. أرى عينيها السود اللامعة بالذكاء وشعرها الأسود الطويل المحاط بالتاج اللامع وطرحة

الزفاف الأنيقة .. ووقفت .. تبتسم و .. رأيتها .. ورأتني .. لوحت بيدها و .. كورت شفتي وأردت أن أطلق صفير الشوق واللهفة ، لكنني ترددت واستدرت .. اقتربت من الباب .. ودون أن أنظر إليها رفعت يدى .. لوحت لها مودعا .. كنت واثقا من أنها رأت يدى .. وأنها لوحت لى مودعة !

قلت لنفسى :

ـ عصفورتى .. حتما سيأتى يوم هادىء .. وسنجد مكانا على مسافة متر واحد من المشروع الصحراوى نقف فيه .. لنتكلم .. نقول كل شىء.. ونتدارك الأخطاء .. لكن هل ستحلقين بى هناك يا عصفورتى ؟ .. أعدك أن أكون أكثر حذرا معك فى المرة القادمة و ..

. . . .

. . . .

وقفت أرقب موكب الزفاف .. لأراها مرة أخرى .. وفرقعت الزغاريد وهى تركب السيارة مع رجلها السعيد .. و .. سمعته يأمر السائق :

ـ إلى المطار بسرعة ..

تساءلت : لماذا حتما أحرم أنا منها .. وتحرم هى منى .. لماذا ؟؟

امتزج السؤال بصخب مواتير الطائرة التى اهتزت ، وهزت معها جدران دماغى ، وخلخلت ضلوع صدرى ..

وقال لى المدير مؤنبا :

ـ كيف تسمح لنفسك بالتغيب ثلاثة أيام عن المشروع يا خالد ؟ ..

اعتذرت .. ولكنه أصر على تأنيبى .. وقال :

– إننا فى سباق مع الزمن .. المسئولون الكبار يتابعون عملنا فى الصحراء .. بعض الوفود الأجنبية تراهن على فشلنا .. وعلينا أن . . . .

عندما قلت له ، أننى حضرت لتهنئة منى .. قاطعنى ضاحكا :

– حظها من السما .. هذه البنت .. تصور أنها تزوجت ابن وكيل وزارة .. يقولون أنه كان زميلها فى الجامعة .. لا أعرف بالضبط .. لكنه حقق لها أفراح العمر .. تكفيها البعثة سنتين فى أرقى معاهد الألكترونيات فى أمريكا .. عرفت كيف تختار ..

أشعل لنفسه سيجارة ، وأدار عنقه السمين ليقول لى :

– بنت طموحة جدا .. هه ..

عندما هبطت الطائرة فى ممرها الضيق فى الصحراء .. أسرعت أغادرها .. سرت مبتعدا عن الجميع .. فى اتجاه المشروع .. أخذتنى خطواتى .. شىء ما بداخلى يبكى ، لكننى رأيت وجهها الحمرى .. وسط ضجيج الماكينات والحفارات ، وغناء العمال ، سمعت ضحكاتها الطفولية المرحة ترتفع ، وفى الخضرة النامية ببطء وسط الرمال ، رأيت وجهها .. وابتسامتها .. ومن بعيد .. من بعيد .. كانت الطفلة فضيلة تعلن لمن فى المزرعة الوليدة :

– المسخوط وصل .. المسخوط وصل يابا ..

وجرت ببراءة ، تهز شعرها حول وجهها الضحوك .. و .. امتزجت صورة زفافها بكلمات المدير :

– عرفت كيف تختار ..

.. عجزت عن الجرى .. عن الارتماء فوق الرمال .. عن ضرب دماغى فى الصخرة الفرعونية الضخمة بباب الكهف .. عن العثور على

عقرب سامة من النوع الذى غدر بعاطف :. عن انتزاع خنجر الحاج جميل السهار :. لكننى لم أعجز عن الوقوف ، أحاول أن أتماسك :: أن أبتسم :: أرى أحلامى وأحلامها وأحلام عاطف وسوسن وفريدة .. وهى تنمو ببطء وسط الصحراء الرهيبة .: فأطلقت صفيرا ، حاولت قدر استطاعتى أن أجعله عذبا :. طويلا :: ساحرا .. أليفا و :: ومن كل الجهات ، انبعث صوت عاشق مصرى قديم يغنى :

– يا أجمل كل الناس :.

– كنت أود أن أشاركك بيتك ::

– كى تضع على ذراعى ذراعك ..

– وتضع إلى جوار عقلى :. عقلك ..

– ونفكر معا :. ونحلم معاً ::

– ولكنك :: يا أجمل كل الناس ::

– أدرت عنى حبك .. :: .. فى لحظة طيش منى .. منك ..

وبأصبعى كتبت على الرمال : « لقد لعبنا كثيرا وضحكنا كثيرا وكانت لنا حكايات فى مواسم الشمس والمطر :. وكنا نمتلك الملايين من نجوم السماء وكلمات الحب .. لكن :. وداعاً محبوبتى الصغيرة العاقلة .. لقد فقدنا حبنا فى لحظة طيش منك :. منى :. و .. و .. و .»

وامتزج الغناء العاشق بأغنيات العمال والمهندسين فى حقول المزرعة الصناعية و :: بضجيج حفارات البترول :: تطلعت للسماء.: كانت السحب حبلى بأمطار غزيرة قادمة ::

« تمت »



رقم الايداع ٣٨٣٩ / ٨٢
الترقيم الدولى ٠ - ٠٠٩ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غــريب للطبــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩